علي الطنطاوي

سيد رجال التاريخ

محمد صلى الله عليه وسلم

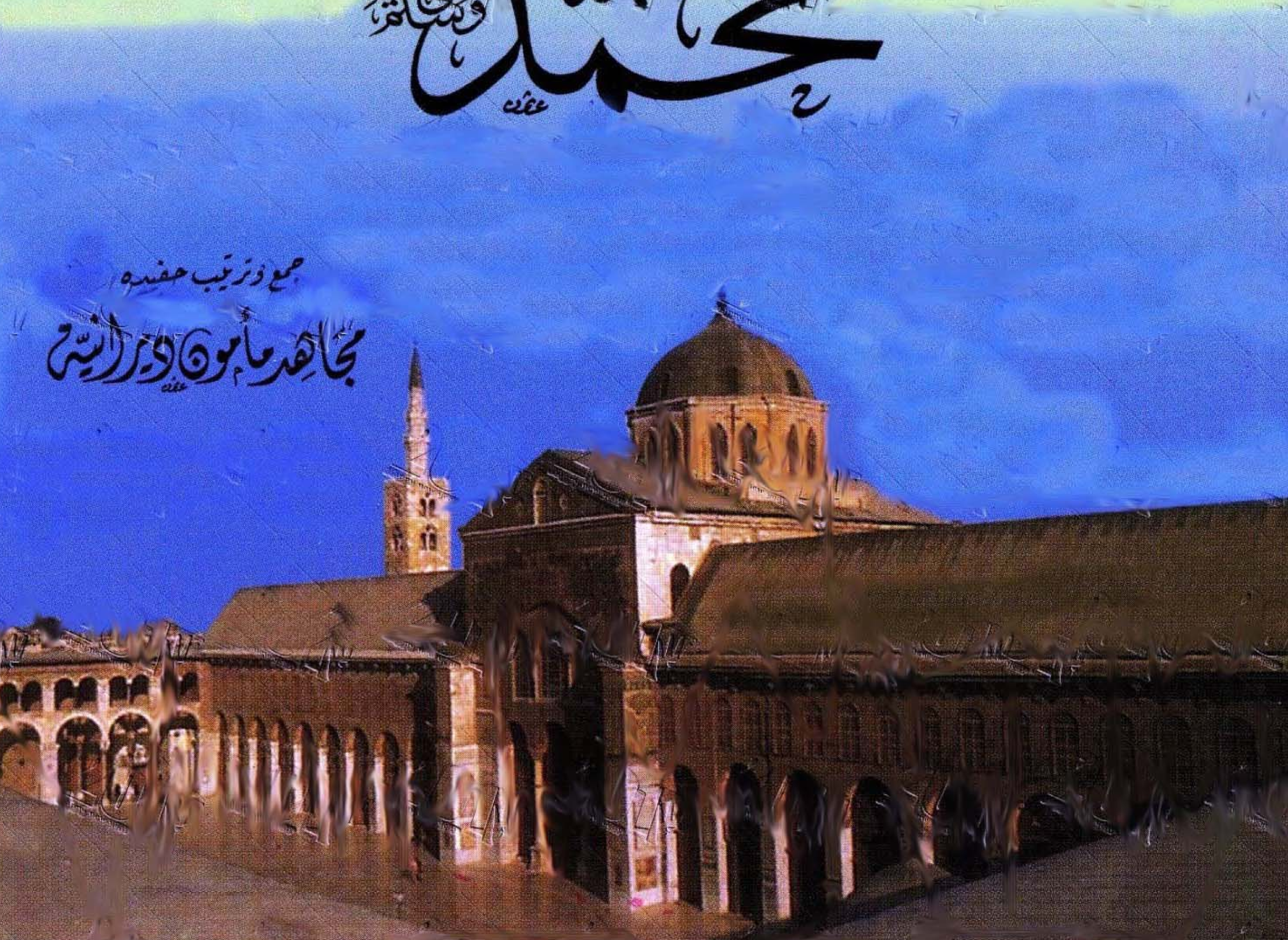

جمع وترتيب حفيده

مجاهد مأمون ديرانية

دار المنارة

سيد رجال التاريخ

محمد صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

في أول المقالة الأولى في هذا الكتاب يقول علي الطنطاوي: "أنا أقرأ سيرة الرسول ﷺ من يوم كنت أتعلم في المدرسة الابتدائية إلى اليوم، ما انقطعت عن النظر في كتبها". ثم يقول في موضع آخر من الكتاب (في حديث أذاعه من إذاعة دمشق سنة ١٩٥٥): "أنا من ثلاثين سنة أكتب وأخطب في الهجرة ما انقطعت عن ذلك سنة، منذ خطبتُ أول خطبة فيها سنة ١٣٤٥هـ في الاحتفال السنوي للمدرسة الأمينية. نسأل الله حسن الخاتمة".

فإذا كان هذا القول صحيحاً، وإذا كان من عادة علي الطنطاوي أن يتحدث أو يكتب عن محمد ﷺ في ذكرى هجرته أو بمناسبة يوم مولده في كل عام، فإن معناه أن له مئة وخمسين مقالة أو حديثاً عن النبي ﷺ أو نحو ذلك.

والحقيقة أن هذا القول لا تكاد تكون فيه مبالغة؛ فقد دأب جدي على الكتابة أو التحدث عن الهجرة في أول كل سنة هجرية على مر السنين، وكذلك عن النبي ﷺ في يوم مولده. وكان من مذهبه أن هذه الأيام ليست أعياداً للمسلمين تُستحدَث في الدين؛

فلا عيد إلا الفطر والأضحى، ولكن الاجتماع لقراءة السيرة أو الحديث عن الهجرة أمر فيه خير لا يمنعه الشرع ولا ينهى عنه.

قال في حديث له منشور في جريدة «المدينة» في يوم الجمعة، الثاني عشر[1] من ربيع الأول ١٣٩١: "صحيح أن الله ما قال لنا: احتفلوا بالمولد، ولكن هل قال: لا تحتفلوا به؟ لقد قال لنا: لا تُحْدثوا في الدين ما ليس منه، ونحن لا نُحْدث ولا نُبْدع ولا نقول إن الاحتفال بالمولد عبادة مشروعة ولا إنه من شعائر الإسلام، ونحن نعلم أن الإسلام بالاتباع لا بالابتداع، وبالكتاب والسنة لا بالرأي المجرد والهوى. إننا لا نقرأ هذه الموالد التي تحوي الكذب على رسول الله ﷺ وفيها ما هو تزوير للتاريخ الصحيح، ولا نقرن الاحتفال بمحرَّم، ولا نأتي المعاصي بحجة الاحتفال بالمولد، ولا نجعل الاحتفال بإيقاد المشاعل واللمبات ونصب الرايات وإقامة الزينات، وقرع الطبول والآلات وإنشاد الأناشيد والأغنيات...

بل نحتفل بتلاوة الصحيح من سيرة محمد ﷺ نجدد العهد بها، فهل قال لنا الشرع: لا تتلوا في هذا اليوم سيرة محمد؟ نقرؤها اليوم أو نقرأ منها في كل مسجد، وفي كل مدرسة، وفي كل نادٍ، وفي كل منزل، حتى نحس كأننا نعيش في هذه السيرة؛ نعاشر رجالها ونساير أحداثها، ونتخذ منها منفذاً من هذا الحاضر الخانق الذي نحيا فيه فتكون لنا كقناع الأكسجين للمريض...".

* * *

[1] قال في أول المقالة: "الصحيح أن يوم المولد كان يوم الإثنين التاسع من ربيع الأول لا الثاني عشر، الموافق للعشرين من نيسان (أبريل) سنة ٥٧١ م".

وهكذا اجتمع لديه من هذه الأحاديث كثير، ولكن ما ضاع كان أكثر؛ لأن الشيخ كان يخطب في كثير من هذه المناسبات ارتجالاً، فلما انتقل إلى الحديث في الإذاعة وفي الرائي مضى على نهجه ذاته؛ يلقي حديثه ارتجالاً بغير أصل مكتوب، فضاعت أكثر هذه الأحاديث فيما ضاع من الخطب والأحاديث.

فلما أخذت أوراق جدي التي تركها بعد وفاته -عليه رحمة الله- واشتغلت في فرزها وترتيبها اجتمع لديّ من هذه المقالات عدد يملأ كتاباً من الحجم الكبير، ولكني وجدت في بعضها تكراراً لا يحسن معه الجمع بينها، فاخترت أفضلها. ووجدت بعضها الآخر أحاديث إسلامية عامة أوحت بها ذكرى المولد، أو مقالة حماسية عن القدس وفلسطين جرّتْ إليها ذكرى الإسراء والمعراج، فآثرت أن أترك الأولى وأمثالها للجزء الثاني من كتاب «فصول إسلامية» الذي أرجو أن يصدر قريباً، والثانيةَ وأمثالَها لكتاب عن فلسطين يضم شتات ما كتبه الشيخ عنها وما خطب، مما نُشر في بعض كتبه السابقة وما لم يُنشر في أي منها قط، وهو كتاب قد يستعير عنوانَه من عنوان إحدى مقالاته التي سماها جدي: «لا تنسوا فلسطين» (أو اسماً آخر يوفّق الله إليه).

* * *

وبعدما اخترت مقالات هذا الكتاب كان عليّ أن أرتبها. وقد وجدت أن بوسعي ترتيبها حسب تواريخ صدورها أو حسب ترتيب مناسباتها، فاخترت الطريق الثاني؛ فبدأت بمقالات المولد، ثم الإسراء والمعراج، والهجرة أخيراً، وبدأت ذلك كله بمقالة

افتتاحية عن شخصية الرسول ﷺ.

ثم اجتهدت في شرح بعض المفردات الغريبة في بعض المقالات، ولا سيما المتقدمة منها (مما كُتب ونُشر في الثلاثينيات والأربعينيات)؛ إذ المشاهَد أن أسلوب الشيخ كان في أوله جزلاً مغرِقاً في الفصاحة، وقد يميل إلى الإغراب حتى لتصعب بعض كتاباته على من لم يألف مثل هذه اللغة القوية (وكلنا ذلك الرجل!) ثم هو قد مال -من بعد- إلى البساطة والبعد عن التكلف والإغراب، فغدا من السهل الممتنع الذي يمتع قارئه ولكنه يُعجِزه عن مجاراته. وقد ميزت كل تعليق وضعته باسمي بين قوسين حتى لا يختلط بكلام جدي رحمه الله.

وأسأل الله -ختاماً- أن يجمعنا في مستقر رحمته وجنة نعيمه بالنبي الذي أحببناه، عليه الصلاة والسلام، فاشتغلنا بسيرته: جدي علي الطنطاوي -أصيلاً- حين تحدث عنه وخطب وكتب، وأنا -متطفلاً- حين اشتغلت بإخراج هذا الكتاب. اللهم آمين.

مجاهد مأمون ديرانية

جدة: جمادى الأولى ١٤٢٢

شخصية الرسول ﷺ

نشرت هذه المقالة سنة ١٩٦١،
وأصلها محاضرة ألقاها علي الطنطاوي
في جامعة دمشق سنة ١٩٥٥

أنا أقرأ سيرة الرسول ﷺ من يوم كنت أتعلم في المدرسة الابتدائية إلى اليوم، ما انقطعت عن النظر في كتبها، حتى حسبت -غروراً مني- أني غدوت عالماً فيها. ولكن الله أرسل إليّ حادثتين علّمتاني أني لا أزال جاهلاً بما حسبت أني صرت من العلماء فيه.

الأولى: أنها لما أُنشئت كلية الشريعة في جامعة دمشق سنة ١٩٥٥ كُلّفت إقراء السيرة فيها، فاستسهلت الأمر وظننت أني لا أحتاج في إعداد الدروس إلا إلى نظرة في كتبها، أتذكّر فيها ما نسيت وأثبت فيها ما أذكر.

فلم يأتِ الدرس الأول حتى رأيت أن الذي هو في ذهني من محفوظات، والذي هو تحت يدي من مراجع، خليطٌ كله: من روايات مختلفة المراتب، متباينة الدرجات، منها الصحيح الثابت ومنها الموضوع المكذوب ومنها ما هو بين ذلك. وإذا أنا أحتاج

فى تصحيح الخبر الواحد ومعرفة طرق سنده وعلل متنه إلى ساعات، وقد لا أصل إلى حقيقة الحكم عليه. وذلك ما يعجز عنه المتفرغ له: المنصرف إليه، فكيف بي وقد كان لي من عملي فى المحكمة وفي الكتب التي أؤلّفها والأحاديث التى أعدّها والمقالات التي أكتبها ما يكاد يستنفد وقتي؟ وثَقُل عليّ الحِمل حتى صرت أتمنى أن يلهم الله مجلس الكلية تكليف غيري بهذا الدرس، ولولا الحياء لفررت منه فراراً، مُقِرّاً بعجزي معترفاً بتقصيرى.[1]

والثانية: أني فكرت في تصوير شخصية الرسول ﷺ، فقلت: ما عليّ إلا أن أجمع في ذهني الحوادث التي تَكُون من شخصيته -صلى الله عليه وسلم- كالخطوط العريضة من الصورة؛ تذكّر بها وتصف حدودها ومعالمها، وإن لم تُبِنْ تفاصيلها ووقائعها. كمن يريد أن يرسم للمسجد صورة عاجلة، فيخط نصف دائرة بطنها إلى تحت ومن تحتها مربع وإلى جنبها عمودان، فتذكّرك الدائرة بالقبة والمربع بالحرم والعمودان بالمنارة، فتعرف أن هذا مسجد، وإن لم تكمل صورته ولم يتم وصفه.

ورسمتُ خطة البحث وميّزت عناصره، ثم جئت أكتبه، فإذا أنا لا أبلغ من هذه الصورة التقريبية ثلث الحد الذي حدّدتُه لها حتى تبلغ الصفحات المكتوبة إحدى وثلاثين صفحة، وإذا أنا

---

[1] فررتُ بعد ذلك، ولكن لغير هذا السبب. إنهم جمعوا في الفصل بين الطالبات البالغات والطلاب الشباب، ولم يسمعوا صوتي في الإنكار فاضطررت إلى الترك.

أحتاج -إن أكملتها- إلى عشرة فصول مثل هذا الفصل، فوقفت عند نهاية هذا الثلث وتركت البحث ناقصاً، وما أدري أيسهّل الله إكماله أم يبقى كما هو.

* * *

وبعد، فما هو «الرسول»؟

لقد كنت في غنية عن تعريف «الرسول»، ولكن الإنسان يضطر في هذه الأيام الى توضيح الواضحات.

ذلك أن فريقاً ممن ينتسب إلى الإسلام، ممّن يقلد خصوم الإسلام ويأخذ مقالاتهم، يقرر أن محمداً ﷺ كان عبقرياً أعظم عبقري، وكان نابغة النوابغ، ويسكت عن جانب الرسالة أو ينكره. ولقد ذُرَّ قرن هذه الفتنة في حفلةٍ أُقيمت في ذكرى مولده ﷺ في مدرسة التجهيز الأولى من نحو ثلاثين سنة[1]، فقام أحد المدرسين «المسلمين»... يعزف على هذه النغمة، التي لحّنها له مدرس من غير المسلمين[2]، فوثبتُ فألقيت به من فوق المنبر، وكان لذلك ذيول وعقابيل يعرفها جمهور أهل الشام[3].

وفريقاً رفعه فوق البشرية وأعطاه من الصفات ما لا يكون إلا لله وحده، فنسب إليه إرهاصات لم تقع، ومعجزات لم تكن، واعتقد أنه حي بجسده فى قبره مثل حياتنا على ظهر الأرض، وأنه

---

(1) أي سنة ١٩٣٩ م.

(2) هو ميشيل عفلق، وكان زميلنا فى التدريس.

(3) والخبر مفصل في الحلقة ١١١ من الذكريات: ١٤٧/٤ (مجاهد).

يعلم الغيب. ثم جاء هذا الفريق يسأله ما لا يقدر عليه إلا الله.

والحقيقة ليست هنا ولا هناك. الحقيقة أن الرسول ﷺ لم يكن عبقرياً فقط، ولم يكن فى طبيعته فوق البشر، بل كان بشراً ولكن كان بمزاياه وأعماله فوق البشر، وكان يوحَى إليه من رب البشر.

وهذا جانب من البحث يحتاج -وحده- إلى فصل كامل، ولقد كتبتُ فيه شيئاً كثيراً جداً، فى مجلات مصر والشام ولبنان والعراق، فلا أعود الآن إلى ما كتبت، ولكن أذكّركم بقوله تعالى ﴿قُلْ إنّمَا أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾. وأنبّهكم -أولاً- إلى قوله «إنّما» التي تفيد الحصر والقصر؛ أي: «ما أنا إلا بشر». وأنبّهكم -ثانياً- إلى كلمة «مثلكم»: هو مثلكم في ولادته ووفاته، وفي حياته وموته، وفي صحته ومرضه، وفي إصابته وخطئه. إنه قد يجتهد برأيه في أمور الدنيا: فيصيب غالباً ويخطئ أحياناً، ومَن لا يخطئ من البشر؟ ولكن الله لا يقرّه على الخطأ.

هو بشر مثلنا في هذه المقومات العامة للصفة البشرية، ولكن ليس في البشر -على التحقيق- من هو مثله في عظمته، ولم يخلق الله من هذا الطراز من أبناء آدم جميعاً إلا رجلاً واحداً اسمه محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وعلى أبيه إبراهيم، وعلى موسى وعيسى وجميع الأنبياء.

وإن من الظلم لمحمد، وإن من الظلم للحقيقة، أن نقيسه بواحد من هؤلاء الآلاف من العظماء الذين لمعت أسماؤهم في

دياجي التاريخ، من يوم وُجد التاريخ؛ فإن من العظماء من كان عظيم العقل ولكنه فقير في العاطفة وفي البيان، ومن كان بليغ القول وثّاب الخيال ولكنه عادي الفكر، ومن برع في الإدارة أو القيادة ولكن سيرته وأخلاقه كانت أخلاق السوقة الفجار[1].

ومحمد ﷺ هو وحده الذي جمع العظمة من أطرافها. وما من أحد من هؤلاء إلا كانت له نواحٍ يحرص على سترها وكتمان أمرها ويخشى أن يطّلع الناس على خبرها؛ نواحٍ تتّصل بشهوته، أو ترتبط بأسرته، أو تدل على ضعفه وشذوذه، ومحمد هو وحده الذي كشف حياته للناس جميعاً، فكانت كتاباً مفتوحاً، ليس فيه صفحة مطبقة، ولا سطر مطموس، يقرأ فيه من شاء ما شاء.

وهو وحده الذي أذن لأصحابه أن يذيعوا عنه كل ما يكون منه ويبلّغوه، فروَوْا كل ما رأَوْا من أحواله في ساعات الصفاء، وفي ساعات الضعف البشري، وهي ساعات الغضب، والرغبة، والانفعال. وروى نساؤه كل ما كان بينه وبينهن؛ هاكم السيدة عائشة تعلن في حياته وبإذنه أوضاعه في بيته، وأحواله مع أهله، لأن فعله كله دين وشريعة.

لقد رووا عنه في كل شيء حتى ما يكون في حالات الضرورة البشرية، فعرفنا كيف يأكل، وكيف يلبس، وكيف ينام، وكيف يقضي حاجته، وكيف يتنظّف من آثارها.

---

[1] ومن تصفّح سِيَر أدباء الإفرنج رآها كلها كذلك: إسكندر دوماس، وبودلير، وبيرون، وسِيَر قوّادهم كذلك: من نابليون بونابرت إلى أصغر قائد عندهم.

فأروني عظيماً آخر جَرُؤَ أن يغامر فيقول للناس: "هاكم سيرتي كلها، وأفعالي جميعاً، فاطّلعوا عليها وارووها للصديق والعدو، وليجد من شاء مطعناً عليها". أروني عظيماً آخر دُوِّنت سيرته بهذا التفصيل، وعُرفت وقائعها وخفاياها بعد ألف وأربعمئة سنة، مثل معرفتنا بسيرة نبينا ﷺ.

* * *

والعظمة إما أن تكون بالطباع والأخلاق والمزايا والصفات الشخصية، وإما أن تكون بالأعمال الجليلة التي عملها العظيم، وإما أن تكون بالآثار التي أبقاها في تاريخ أمته وفي تاريخ العالم.

ولكل عظيم جانب من هذه المقاييس تُقاس بها عظمته، أما عظمة محمد ﷺ فتُقاس بها جميعاً لأنه جمع أسباب العظمة؛ فكان عظيم المزايا، عظيم الأعمال، عظيم الآثار.

والعظماء إما أن يكونوا عظماء في أقوامهم فقط؛ نفعوها بقدر ما ضرّوا غيرها، كعظمة الأبطال المحاربين والقوّاد الفاتحين. وإما أن تكون عظمته عالمية، ولكن في جانب محدود؛ في كشف قانون من القوانين التي وضعها الله في هذه الطبيعة وأخفاها حتى نُعمل العقل في الوصول إليها، أو معرفة دواء من أدوية الأمراض، أو وضع نظرية من نظريات الفلسفة، أو صَوْغ آية من آيات البيان؛ قصة عبقرية، أو ديوان شعر بليغ.

أما محمد ﷺ فكانت عظمته عالمية في مداها، وكانت شاملة في موضوعاتها.

وكان مؤمناً بما يدعو إليه. وكثير ممن نعرف من الدعاة، قديماً وحديثاً، يقولون بألسنتهم ما تخالفه أفعالهم، ويعلنون في الملأ ما لا يأتونه في الخلوات، وتغلب عليهم طبائع نفوسهم في ساعات الرغبة والرهبة والغضب والجوع والحاجة، فينسون كل ما يقولونه. ولست أتكلم عن أحد، ولكن أضرب نفسي مثلاً: أنا أحاول السموّ النفسي حين أُلقي المحاضرة وأكتب المقالة الداعية إلى الحق والخير والهدى، فلا أكاد أعلو قليلاً حتى يغلب عليّ ثقل طبيعتي وشهوات نفسي الأمّارة بالسوء، فأعود إلى الأرض. ويرى الناس ذلك من الوعّاظ والخطباء فلا يبالون بما يقولون، ولا يكون للوعظ فيهم أثر.

أما الرسول ﷺ فلم يدعُ يوماً إلى محاضرة جامعة في بيان أحكام الإسلام، ولم يُقِم مدرسة لها ساعات ودروس، ولم يجلس في حلقة وعظ، بل كان يبلّغ ما يوحَى إليه في البيت والمسجد والطريق، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حين تدعو الحاجة إليه، ولكنه يقول ذلك بلسانه وعمله، ويعبّر عنه بقوله وفعله؛ فقد كان خلقه القرآن.

وأنتم تسمعون هذه الكلمة ولا تفكرون في معناها، ومعناها يا سادة: أن كل فعل من أفعاله، وكل خُلُق من خلائقه، آيات تُتلى، ومحاضرة تُلقى، وحلقة درس ومجلس وعظ، لأنها كلها تنطق بما يأمر به القرآن.

وكان يقوم الليل يصلي حتى تورّمت قدماه، ويستغفر الله دائماً، فقيل له: «ألم يغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟»

قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟». وكان في أعماله كلها في صلاة؛ لأن كل سعي للخير ودفع للشر وعمل لمصلحة الجماعة -إن أُريدَ به وجه الله- كان لصاحبه صلاة. وأنا أكتفي بمثال واحد على إيمانه بما يدعو إليه، وتمسّكه بتطبيقه تمسّكاً كاملاً يعلو على كل الاعتبارات. وأمهّد لهذا المثال بصورة واقعة:

لو اتُّهمت فتاة من أشرف الأسر (من أسرة كبير أو وزير) بتهمة السرقة، أترونها تُسجَن كما تُسجَن «نَوَرية»[1] لو كانت هي السارقة، ويُنفّذ فيها حكم القانون كما يُنفّذ في تلك النورية، أم تمتد إلى قضيتها مئة إصبع، فتستر الجُرم أو تسهّل المحاكمة أو تهوّن العقاب؟

لقد وقعت قضية كهذه على عهد الرسول. فتاة من أشرف أسر قريش، من بني مخزوم، من أسرة الوليد الذي يقال له الوحيد، أسرة خالد سيّد قواد المعارك، وهي ثالث أسرة شرفاً بعد هاشم وأمية. سرقت هذه الفتاة، وثبت الجرم، وتقرر الحكم، فسعى ناسٌ في الوساطة لها، يظنون أن الرسول -لما يعرفون من حبه للصفح والعفو- سيعفو، فإذا هو يغضب ويُفهمهم أنه إنما أهلَكَ مَن كان قبلهم أنهم إذا اجترم الشريف تركوه، وإذا اجترم الضعيف عاقبوه. ويقول لهم قولته العجيبة التي وطّدت في حياة الإسلام ركناً ثابتاً، وقررت أن الحدود لا تُسمَع فيها شفاعة ولا يكون فيها

---

[1] النّوَرية هي الغجرية. والنَّوَر منتشرون في آسية وأوربة. وأظهر الأقوال أن أصلهم من الزّط الذين أسكنهم الحجاج بن يوسف الثقفي أواسط العراق، وقاموا -من بعد- بثورتهم المشهورة.

عفو: «أما والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها».

وكان ذلك عنده شيئاً طبيعياً لأنه كان يعيش بالدعوة، ويعيش للدعوة؛ هواه تَبعٌ لما أُنزل إليه، وكل ما يصله بالناس من أسباب القرابة والصداقة والمنفعة ينقطع إذا اعترض طريق الدعوة.

وقد فرغ ﷺ مما يحيا له الناس عادة من أمر الطعام واللباس، وفرغ من مطالب النفس كلها، ولم يكن يحرص على التقشف أو يتعمّد الجوع كما يفعل بعض من يدّعي الزهد، ولا يواظب على لباس الفقر ولا على اتخاذ الصوف، بل كان يأكل ما قُدّم إليه من الطيبات، وإن لم يعجبه (مما لم يكن محرَّماً) لم يأكله ولم يَعِبْه، وما عُرف عنه أنه ذمّ طعاماً قط. وإن لم يجد صبر على الجوع حتى يبرح به فيربط على بطنه الحجر.

وكان يلبس ما وجد، ولا يلتزم زيّاً خاصاً ولا نوعاً خاصاً ولا لوناً خاصاً، وقد لبس العمامة على القلنسوة، والقلنسوة بلا عمامة، والعمامة بلا قلنسوة، واتخذ القميص والإزار والرداء، ولبس البُرد، ولبس الجُبّة، لا كهذه الجبب الواسعة ذات الأكمام العريضة بل الجبة الضيقة الأكمام، ولم تكن عمامته كهذه العمائم الشامية أو المصرية أو التركية، بل كما يُعرَف من عمائم أهل الحجاز؛ قطعة من قماش تُلَفّ على الرأس لفّاً لا تصنّع فيه ولا تكلّف، فإن لم تكن إليها حاجة أُلقيت على العاتق. وكانوا يستعملونها لحاجتهم في السلم، وربما ربطوا بها الأسير في الحرب، وكانوا ربما جعلوا لها ذؤابة أحياناً. والعمائم ضرورة من ضرورات الطبيعة في الحجاز ذات الشمس المحرقة، فهم يقُون

رؤوسهم بها من وَقدة الشمس، ومن ذلك قيل: «العمائم تيجان العرب». ولم يكونوا يلتزمون فيها لوناً بعينه ولا شكلاً بذاته. وكانت عمائم النبي ﷺ تختلف ألواناً، وكانت عمامته يوم الفتح سوداء.

والرسول ﷺ لم يكن يحرّم زينة الله التي أخرج لعباده ولا الطيبات من الرزق، ولا يردّها ولا يأباها إن وجدها، ولكنه لم يكن يحرص عليها ويجعلها أكبر همه من دنياه.

ولقد فرغ كذلك من شهوة الغنى والجاه. وأنتم تعرفون أن قريشاً عرضوا عليه ما شاء من أموالهم إن شاء الغنى، وعرضوا عليه السلطان والإمارة عليهم إن شاء الجاه، ولم يتركوا شيئاً مما يعلمون ميل النفوس إليه وتعلّقها به إلا بذلوه له ليترك دعوته، فكان يأبى عليهم ما عرضوه، راثياً لهم مشفقاً عليهم.

وفرغ كذلك من أمر الشهوة الجنسية. ولقد غرّ أقواماً من المستشرقين ممن تطاولوا لدرس حياة الرسول بهذه العقلية الأرضية المريضة، وقاسوه بالمقياس الذي يقيسون به العظماء من رجالهم، فرأوا أنه تزوج تسع نسوة، فقالوا إنه رجل شهواني، يحسبونه من نوع مَن عرفوا من الرجال، رجال السيف عندهم ورجال القلم. فنابليون –مثلاً– أكره أمّة كاملة، بحكومتها ووجوه شعبها، على أن يكونوا «قَوّادين» له، يوصلونه إلى الفتاة البولونية التي أحب، وزاد على ذلك فاضطر أبا الفتاة على أن يلزمها الإثم الذي أراده منها، وجعل استقلال بولونيا رهناً بتحقيق هذه الرغبة النجسة الفاجرة. فجاؤوا بهذه العقلية يدرسون سيرة رسول الله ﷺ، فدلّوا

بقولهم عنه إنه شهواني على جهلٍ بعلم النفس، وجهلٍ بتاريخ محمد، وبعد عن الحياد والنزاهة في البحث.

إن أشدّ أيام الرغبة الجنسية يقظةً وثورةً هي سن ما بين البلوغ والخامسة والعشرين، هذه هي السن الخطرة التي ينبغي لكل عاقل وعاقلة أن يحذر فيها الوقوع في المعصية ويبتعد عن ذرائعها وأسبابها، من التكشف والاختلاط ومتابعة النظر إلى العورات والإقبال على المغريات (ولو كان الاختلاط باسم العلم أو الدرس).

فأين كان محمد في هذه السن؟ وما هي حوادث صبوته؟ لقد كان حرّاً، في مجتمع حر، ولو أرادها لم يمنعه منها مانع من رقابة ولا من عرف، ولقد كان لِداته[1] من الشباب غارقين في هذه الملذات، لا يحرّمها عليهم دين ولا قانون. فلماذا لم يسلك سبيلهم كما يقول المستشرقون المفترون؟

إن سيرة محمد ﷺ مكشوفة للعدو والصديق، معرّضة لأنظار كل ناقد، فهل ترون فيها ما يدلّ على أنه كان من أرباب الصبوات؟ ولقد كان خصومه من المشركين من أبناء بلده وأعرف الناس به، فلو عرفوا عنه شيئاً لما كتموه، بل لأذاعوه في الشرق والغرب وسيّروا به القصائد والخطب.

ولقد تزوج وهو ابن خمس وعشرين، فهل تزوج الفتاة البكر

---

[1] اللِّدَات: المتقاربون في السن. وتكون اللِّدات للرجال كما تكون الأتراب للنساء. و «لِدة» من «وَلَدَ»، مثل «عِدة» من «وَعَدَ».

الجميلة، أم تزوج أرملة في الأربعين، في مثل سن أمه لو ولدته أمه مبكرة؟ وسائر زوجاته: أما كُنّ أو كان جلّهنّ من الكبيرات الأرامل، تزوجهنّ زواج سياسة وتدبير؟ ولقد أحل الله له أكثر من أربع، فأعطاه بذلك أكثر من باقي المسلمين، ولكنه حرمه، بالمقابل، حقاً منحه لكل زوج؛ وهو حق الطلاق.

* * *

وكان مفتاح شخصية الرسول ﷺ القوة، القوة المادية والقوة الروحية.

وإذا كانت قوة الجسد هي الانتصار على المقاومة المادية، وقوة القلب هي الظفر في المعارك، فإن هنالك قوة أكبر؛ لأنها نصر على ما هو أكبر من المادة وأشق من خوض المعارك؛ هي قوة الخُلق، وهي نصر على النفس وطبائعها وغرائزها ورغباتها وميولها.

تصوّرْ لو أن رجلاً قتل أحب الناس إليك وأعزّهم عليك، ثم جاءك مستسلماً لدعوتك (وأنت الداعية)، هل تنسى ما ذرفتَ من ماء العين على قريبك وما أرقت عليه من دمع القلب... وتعفو؟

لقد عفا الرسول ﷺ عن وحشي قاتل حمزة لما أسلم، لكن غلبته طبيعته البشرية (فيما لا يخالف الإسلام ولا يضر الرجل)، فقال له: «لا تجعلني أراك»، فكان يتوارى عن عينيه.

وهند، هند امرأة أبي سفيان، التي بلغ من حقدها على محمد ودعوته أن فعلت ما لا تفعله امرأة، ولا يفعله إنسان، ولا يفعله

الذئب، ولا النمر! شقّتْ صدر حمزة وأخرجت كبده ولاكَتْه... هند التي فعلت في حرب الرسول الأفاعيل، لقد عفا عنها وبايعها وقَبِل إسلامها.

وأهل الطائف الذين سمعتم بخبر ما فعلوا بالرسول، لما أسلموا عفا عنهم.

وهاكم الموقف الأكبر، المثل الأعلى في بابه في كل العصور: أهل مكة الذين جرّعوه وأصحابَه الصّاب والعلقم، وآذوه في جسده ونفسه وعقيدته، وقالوا عنه، ونالوا منه ومن أصحابه، وقاطعوه، وحبسوه في الشّعب، ووضعوا الشوك في طريقه، وألقَوْا على رأسه كرش الناقة وهو ساجد، وسخروا منه أنواع السخريات، واستمرّ ذلك لا يوماً ولا يومين، ولا سنة ولا سنتين، ولكن ثلاث عشرة سنة، ثم حاربوه وذبحوا أقرباءه وأصحابه، حتى ظفر بهم، وأقامهم أمامه حول الكعبة أذلاّء لا يملكون دفاعاً، وجاءت ساعة الانتقام... لا؛ دعوا كلمة الانتقام فإنها لا تليق بالمقام. ساعة العقوبة المشروعة التي يكون فيها الردّ على هذه السلسلة الطويلة من التعديات والإساءات، وها هو ذا يقول لهم: «ما ترون أني فاعل بكم؟».

إنهم يذكرون ما صنعوا ويعرفون ما يستحقون، ولكن يذكرون أيضاً خُلُق محمد ويعرفون مُثُله، فيقولون: «أخٌ كريم، وابنُ أخٍ كريم».

ويسكتون في انتظار الحكم القطعي. ولو كان الحكم بقتلهم جميعاً لما وُجد من كتّاب التاريخ (الصديق منهم والعدو) مَن

يلومه بكلمة، ولكن حكم محمد كان غير ذلك؛ كان مفاجأة لا يتوقعها أحد، مفاجأة أدهشت عصره وكل عصر يأتي بعده. قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء».

* * *

وأنا أعجب لماذا حاول المتأخرون من مؤلفي السيرة الاستكثار من المعجزات والتوسع فيها وإضافة معجزات لم تكن. وما حاجتهم إليها؛ وكل موقف من سيرة الرسول وكل جانب من شخصيته هو معجزة من أكبر المعجزات؟

وما المعجزة؟ أليست الأمر الذي يعجز الناس عن مثله؟!

إن صدقه وأمانته معجزة. ولن أسرد عليكم أمثلة كثيرة، فالمجال ضيق، ولكن أعرض مثالاً واحداً؛ حادثة مررت بها في مطالعاتي مئات المرات فكنت أقرؤها على أنها خبر عادي، ثم تنبّهت إليها يوماً فجأة فإذا هي أعجوبة، وكم في السيرة من أمثال هذه الأخبار!

كلكم تعرفون أنه لمّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ترك علياً مكانه ليردّ الودائع التي كانت عنده لقريش، فهل فكرتم يوماً ما قصة هذه الودائع؟ يردّها لقريش لا للمسلمين؛ إذ لم يبقَ أحدٌ من المسلمين في مكة لما هاجر الرسول ﷺ، لأنه كان آخر مَن هاجر. بقي كما يبقى الربان في السفينة الجانحة، لا يتركها حتى ينزل الركاب جميعاً ويصلوا إلى قوارب النجاة... وهذه مَنْقبة ذكرتُها عَرَضاً.

قصة الودائع هي أن قريشاً كانت -على كل ما كان بينها وبين الرسول- لا تجد مَن تأتمنه على ذخائرها إلا محمداً. فتصوّروا حزبين مختلفين، الحرب قائمة بينهما، حرب اللسان واليد والمبدأ والعقيدة، ثم يأتمن أفراد الحزب على أموالهم وأوراقهم رجلاً من الحزب الآخر! هل سمعتم بمثل هذه الحادثة؟ وكيف يستودعونها هذا الخصم إن لم يكن في أخلاقه وأمانته معجزة من المعجزات، والشك فيه أحد المستحيلات؟!

هكذا كان محمد ﷺ.

ويوم بدر، يوم مرّ يعدل الصفوف قبل المعركة وفي يده قدح (أي قطعة من الخشب)، فوجد سواد بن غزيّة بارزاً من الصف، فدفعه بالقدح في بطنه وقال: «اعتدل يا سواد»، قال: «يا رسول الله، أوجعتَني، وقد بعثك الله بالحق والعدل».

تصوّروا هذه المشهدة: قائد الجيش يجابهه جندي عادي بهذا الكلام، ماذا ترونه صانعاً به؟ يؤدّبه؟ يُعرض عنه؟ أو تبلغ به سماحة الصدر ونبالة الطبع فيسامحه ويعفو عنه؟ أو يزيد على الغاية فيقول: "عفواً؛ أنا أعتذر إليك"؟

أمّا رسول الله فقد صنع شيئاً لا يصنعه أحد ولا يخطر على بال أحد. كشف له عن بطنه وأعطاه القدح وقال له: «استَقِدْ»، أي: أوجِعْني كما أوجعتُك. أقادَ من نفسه وهو سيد البشر!

هكذا كان محمد ﷺ.

* * *

كانت سيرة حياته كلها معجزة عجز عظماء العالم جميعاً عن أن يتركوا لهم سيرة مثلها. في كل ناحية منها عزة وعظمة: في قوة جسده، وتكوينه الرياضي، في روحه الرياضية وأنه لا يستخفّه النصر حتى يبطره ولا تزلزله الهزيمة حتى تثير غضبه أو تذهب بعزمه. في ثباته في المعامع الحمر حتى كان أبطال الصحابة يحتمون به، وفي شجاعته التي تضعضع أمامها صناديد الرجال. وفي تواضعه للمسكين والفقير ووقوفه للأرملة وللعجوز.

في إقراره بالحق، في صدق التبليغ عن الله، حتى إنه بلّغ الآيات التي نزلت في تخطئته وفي عتابه. وفي احترامه العهود وحفاظه على كلمته، مهما كلفه الحفاظ عليها من مشقة ونصب، سواءٌ عندَه في ذلك معاملاته الشخصية وشؤون الدولة.

في ذوقه وحسّه المرهف، وأنه هو الذي سن آداب الطعام وقرر قواعد النظافة، في وضعه مع أصحابه إذ يعلّمهم ويعمل معهم، ويعيش مثلما يعيشون، ويستشيرهم ويسمع منهم، ويجلس حيث يجد المكان الفارغ في آخر المجلس حتى كان القادم عليه لا يراه، ينظر في وجوه القوم فيقول: "أيكم محمد؟". لأن محمداً لم يكن يمتاز عليهم في جلوسه ولا في ثيابه. كان مثلهم في كل شيء؛ في سلوكه المهذب العفيف مع النساء، وفي سيرته في بيته ومع أهله، ومزحه الصادق، وانطلاق نفسه، وأنه كان محبَّباً إلى كل قلب.

في تواضعه ورفضه أن يُعَدّ ملكاً، ونهي أصحابه عن القيام له، وأنه كان يقوم بحاجة أهله، ويخصف بيده نعله، وأنه عاش

حياة الفقر زهداً في الغنى لا عجزاً عنه، ولو شاء لكان قصره أفخم من إيوان كسرى ودارة قيصر، ولكنه اختار الآخرة؛ فكانت دور نسائه جميعاً، نسائه التسع، لا يتجاوز طولها كلها خمسة وعشرين متراً. وكان منزل عائشة غرفةً واحدةً مبنيةً من اللّبِن والطين، وكانت من الضيق بحيث إنها لم تكن تسع لنومها وصلاته؛ فكان إذا سجد دفع رجلها ليسجد في مكانها. أما طعامه فقد حدَّثتْ عائشة أنه كان يمر الشهر والشهران ولا يوقَد في بيت رسول الله نار ليُخبَز عليها الخبز، قالوا: «فماذا كنتم تأكلون؟»، قالت: «التمر والماء». هذا هو طعام أسرة رسول اللّه ﷺ!

وفي بيانه وفصاحته، وأنه كان أبلغ مَن نَطَق وأبان.

كل ذلك فيه الإعجاز، وفيه الدليل على أن الله ما اختاره لأسمى الرسالات وما جعله خاتم الأنبياء حتى أعدّه لذلك إعداداً جعله واحداً في بني آدم؛ ليس له في شمائله نظير، صلى الله عليه وسلّم.

* * *

محمد رسول الله

نشرت سنة ١٩٥٢

كتب كاتب في «الرسالة» عن الرسول ﷺ، وهل كان يعلم الغيب أم أن الغيب شيء قد اختصّ اللهُ نفسَه بعلمه. فكتبت كلمة صغيرة لتُنشَر في البريد الأدبي، ثم رأيت أن الأمر أكبر من ذلك وأنه لا يكفي فيه تحقيق هذه الجزئية؛ بل لا بد من تصحيح عقيدة كثير من المسلمين بالنبي ﷺ.

إن القرآن بيّنَ بياناً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض ولا مجال لتأويل ولا تبديل، بأنه ﷺ بشرٌ يوحَى إليه؛ فهو -في ولادته وفي منشئه، وفي صحته وفي سقمه، وفي حياته وفي موته- بشرٌ كسائر البشر، وإن كان الله قد اختصه بأسمى الصفات «البشرية» في الخلق والطبع والسلوك والمواهب، وأنه -فوق ذلك- يوحَى إليه كما كان يوحى إلى الأنبياء من قبله ولا يوحى أبداً لأحد من بعده؛ لا لإمام من أئمة آل البيت ولا لمتنبئ ولا لمدّعٍ... هذه هي العقيدة الصحيحة، فهل المسلمون كلهم عليها؟

إن كثيرين من المسلمين (ولا سيما من يدّعي التصوف

منهم) يرفعون النبي ﷺ فوق البشر ويصفونه بصفات الألوهية. والأدلة على ذلك لا تُعَد ولا تحصى، وأنا أمثّل على ذلك بقصائد تُتلى صباح مساء ويتبرك بها الناس ويظنون أنهم يتقربون إلى الله بتلاوتها وإنشادها، وفيها الكفر الصريح الذي يُعَد كفرُ قريش -إن قيس به- إيماناً! فكفار قريش كانوا إن ركبوا الفلك ودهمتهم الشدائد دعوا الله (كما أخبر بذلك القرآن) والبوصيري (صاحب قصيدة «البردة» التي يتلوها بعض المسلمين خاشعين كأنهم يتلون القرآن) يقول للنبي ﷺ:

يا أكرمَ الخلقِ: ما لي مَنْ ألوذُ بِهِ   سواكَ عندَ حُلولِ الحادثِ العَمَمِ

ومن المعلوم أن أقوى طرق القصر عند علماء البلاغة هو النفي والإثبات، ولذلك كانت كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» نفي الألوهية عن الجميع وإثباتها لله وحده[1].

وهذه القصيدة الأخرى التي كان «مشايخنا..» يتبركون بها ويتأدبون عند تلاوتها؛ قصيدة «ما أرسل الرحمن أو يرسل». يقول صاحبها مخاطباً النبي ﷺ:

عجِّلْ بإذهابِ الذي أَشتكي   فإنْ توقّفتَ فمَن أَسأَلُ؟

وأصرح من ذلك قول الشيخ عبد المجيد الخاني مؤلف «الحدائق الوردية»:

---

[1] وهذا تعليق على البيت المذكور؛ لأن البوصيري نفى أولاً بقوله "ما لي من ألوذ به" ثم أثبت بقوله "سواك" فمنح النبي ﷺ صفة لا تكون إلا للّه ﷻ. ومعنى «العَمَم»: العام التام من كل شيء (مجاهد).

رسولَ اللّهِ لي بصرٌ كليلُ   وأنت بكل أحوالي عليمُ
لَعَمْرُكَ يا أجلَّ الرُّسْلِ إنّي   لما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقيرُ

هل يشك أحد ممن يفهم الكلام العربي بأن هذا الرجل يؤله محمداً ويعبده، ويخاطبه بما جاء في القرآن خطاباً لله ﷻ: ﴿رَبِّ إنّي لِمَا أنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقيرٌ﴾ ؟

والأحاديث الصحيحة قد بينت أنه ﷺ وُلِدَ وربّي كما يولد ويربّى لِداتُه من أبناء قريش، إلا أن الله عصمه من عبادة الأصنام ومن الكذب والغش وسائر شرور اللسان والقلب، وجعله على خلق عظيم لم يجعل عليه بشراً غيره في كل عصور البشرية. وتأتي -مع ذلك- هذه الموالد التي يتلوها الناس (وأشهرها مولد العروس عند العامة، ومولد البرزنجي عند الخاصة، وكلاهما محشو بالكذب) فتجعل الوحوش تتباشر بولادته بأفصح الألسن القرشية، وأنه حضر أمَّه -ليلةَ مولده- آسيةُ ومريمُ في نسوة من الحظيرة القدسية، وأن جده وأمه كانا يعرفان بأنه خاتم الأنبياء... مع أنه هو، ﷺ، لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، وأنه لما جاءه الوحي ذهب يقول: زملوني، دثروني، حتى أخبره ورقة أن هذا هو الناموس الذي كان ينزل على عيسى.

وبعض المسلمين لا يعتقد أن الرسول ميت، ويراه حياً في قبره مثل حياتنا؛ حتى إنه كان في حيّنا (في «المهاجرين» في دمشق) خطيب كان يقول في خطبته مسجّعاً: «قال رسول الله ﷺ وهو في قبره حي: البخيل من ذُكرت عنده ولم يصلِّ عليّ». وناقشه بعض طلبة المدارس فأكد لهم أنه حي في قبره، وأن فلاناً

(من مشايخ الطرق) وقف عند القبر وقال (من قصيدة):

فامدُدْ يمينَك كي تحظى بها شفتي

قال: فخرجت اليد الشريفة من جدار القبر حتى قبّلها! وأمثال هذه الأكاذيب التي لا يقرها عقل ولا نقل ولا يقبلها شرع ولا طبع.

والله يقول للرسول: ﴿إنّك مَيّتٌ﴾ ونحن ننكر موته؛ ففيم -إذن- نقرأ السيرة ونقول إنه ولد سنة كذا ومات سنة كذا؟ وفيم نصب الخلفاء من بعده؟ ولماذا لم يرجعوا إليه يوم اختلفوا في السقيفة وكاد ينصدع أمر الإسلام وهو مسجّى لم يدفن بعد؟

إنه حي عند الله حياة برزخية روحية الله أعلم بها، أما بالنسبة إلينا فهو ميت. قد مات ودُفن كما يموت سائر الناس ويُدفَنون، وإن كان قد ورد أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء وأن الله يوكل ملكاً يُسمِعه السلام عليه أو يرده عنه. وهذا كله -وإن صح- طريقه أخبار الآحاد، لا تثبت به عقيدة ولا ينى عليه علم، كما هو معروف من علم الأصول.

والغريب في المعجزات أنك إن رجعت إلى كتب الصحاح وإلى السير الأولى (كسيرة ابن إسحاق) لم تجد إلا شيئاً منها قليلاً، فإن ذهبت إلى الكتب المتأخرة (كالسيرة الحلبية مثلاً) وجدتها فيّاضةً بذكر العشرات من المعجزات التي لم يكن لها ذكر في الكتب الأولى! ونحن لا ننكر المعجزات، ولكنا نجد ما في القرآن يردّ على طالبي الآيات من المشركين بأن القرآن هو

الآية الكافية التي لا تحتاج إلى شيء معها.

ومن المسلمين من يجعل المنامات والرؤى أصلاً من أصول الشرع ويبني عليها أحكاماً وأوهاماً ويتخذها سبيلاً إلى اجتلاب المنافع ودرء المفاسد، ويستندون إلى حديث «من رآني فقد رآني حقاً» مع أن العلماء قد نصوا على أن الشرط في ذلك أن يراه على الصورة التي وُصف بها في كتب الحديث وفي الشمائل، ولا يُبنَى على الرؤية -مع ذلك- حكم شرعي. هذا وأنا لا أذكر درجة هذا الحديث، وليس تحت يدي -وأنا أكتب هذا الفصل- شيء من الكتب أرجع إليه[1].

وبعضهم يخالف ما عليه الإسلام من جهة تقديس أسرته وتفضيلهم بمجرد النسب، مع أن الفضل في الإسلام للتقوى والمزايا الشخصية. والنبي ﷺ يقول لابنته فاطمة: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً». ويحتجون بآية ﴿إلا المَوَدّةَ في القُرْبَى﴾ جاهلين معناها ومساقها.

وآخرون من المسلمين يظنون أنهم يمدحون الرسول ويعظّمونه بوصفه بأنه جميل الوجه، ومدح عينيه، وذكر العشق والوصال، وينشدون في ذلك الأناشيد في الإذاعات (أيام المواسم) ويسمونها «أناشيد دينية»، وما هي إلا تقليد للترتيلات الكَنَسية النصرانية وقلة أدب مع الرسول، ولا أصل لها في الإسلام ولا

---

[1] وجدت الحديث عند البخاري بلفظ: «من رآني فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتكوّنُني»، وعند ابن ماجه بلفظ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»، وعند أحمد بلفظ قريب (مجاهد).

يرضى بها الشرع ولا الذوق ولا الأخلاق، ويجب منع إذاعتها.

وقد نجمت طائفة من شبان المسلمين تنكر الوحي وترى النبي ﷺ عبقرياً فقط، وبعضهم ينسب العبقرية للشعب العربي ويرى بأن الرسول أثرٌ لها. وكل هذا اتّباع للمستشرقين والملحدين، ولبعض النصارى من أُجَراء الأجانب الذين أفسدوا الإسلام في بلاد الشام باسم القومية العربية والانتصار لها والدفاع عنها.[1]

وبعد، فإن من أوجب الواجبات على العلماء والخطباء وأرباب الأقلام الإسلامية أن يردّوا أتباع محمد إلى العقيدة الصحيحة في سيدنا محمد ﷺ، الذي كان بشراً يوحَى إليه ولم يكن إلهاً يُعبَد، ولا جميلاً يُعشَق، ولا نابغة عبقرياً فقط.

* * *

---

[1] انظر خبر احتفال المولد الذي ألقيت فيه كلمة لميشيل عفلق بهذا المعنى وموقف علي الطنطاوي منه في الذكريات (الجزء الرابع: ١٤٧-١٤٨) (مجاهد).

يا سيدي يا رسول الله

نشرت سنة ١٩٤٧

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.

هذا يوم تشرفت في مثله الأرض بمولدك، واستضاءت بنورك، قد جعلناه -بعدك- عيداً (وأشهد ما شرعت لنا إلا العيدين) فنصبنا الأعلام، وأذعنا الأنغام، واجتمعنا على الخطب والكلام، والشراب والطعام؛ فالطرقات مزدحمة بالسرادقات، والمساجد والمقابر ملأى بالزائرين الزائرات، والصحف والمجلات فيّاضة بالفصول والمقالات، وفي كل مكان مظاهر الأفراح والمسرات: في الشوارع والساحات، والأزقّة والحارات...

فعلنا ذلك حبّاً بك وابتهاجاً بمولدك، ثم أُبنا[1] إلى مساكننا فهجعنا هادئةً ضمائرُنا، هانئةً سرائرُنا، إذ قد وفينا لهذه الذكرى التي لم يمرّ على ذهن التاريخ الإنساني أعظم منها أثراً ولا أعلى

---

[1] أي عدنا؛ والفعلان من نفس الباب ولهما نفس المعنى: آبَ يؤوبُ وعادَ يعودُ (مجاهد).

قدراً ولا أبقى ذكراً. أما اتّباع دينك، والاهتداء بهديك، والوقوف عند أمرك ونهيك، فلم نفكر فيه ولم نُدخله في «برنامج الاحتفال»!

فهل يعجبك -يا رسول الله- ما فعلنا؟ هل يرضى به ربك عنا؟

لقد بُعثتَ بـ«لا إله إلا الله». دعوتَ العرب إليها فأَبَوها، فأُمرتَ أن تقاتلهم حتى يقولوها، وخيّرتهم بين السيف وبينها فاختاروا السيف عليها، وآثروا أن يهلكوا عن أن ينطقوا بها؛ استصعبوها لأنهم عرفوا معناها، فعلموا أنها ليست كلمة تُقال بطرف اللسان، ولكنها دستورٌ كامل للحياة وصرْفٌ لها عن وجهتها وتبديلٌ لكل صغيرة وكبيرة فيها.

«لا إله إلا الله»؛ لا ينفع ولا يضر إلا الله، فلا تخشَ في الحق غيره ولا تذلّ في الرجاء لسواه.

«لا إله إلا الله»؛ هو القادر فلا تخف أحداً إن كنت معه، هو البصير فلا تستتر بذنبك منه، هو الرحمن فلا تيأس من رحمته، هو الجبار فلا تأمن غضبه، هو معك حيثما كنت يراك أبداً فاعبده كأنك تراه. هو الخالق البارئ المصور، أعطاك البصر فلا تنظر به إلى عورة، والسمع فلا تُلقِهِ إلى سوء، واللسان فلا تحركه بمحرّم، واليد فلا تستعملها في عدوان، والرجل فلا تمشِ بها إلى ظلم، والبطن فلا تُدخل فيه إلا حلالاً. وأنت منه وإليه لا مخرج لك عن ملكه. وهو المحيي المميت، منحك الحياة فلا تنفق دقيقة منها فيما يكره، وكتب عليك الموت فاذكره أبداً وتهيّأْ له ولا تنسَ أنه ملاقيك!

لقد كانوا أذكياء ففهموا معناها، وكانوا أشرافاً فلم يحبّوا أن يقولوا بأفواههم ما لا يحققونه بأفعالهم، ولذلك استسهلوا القتل واليتم والثكل عن النطق بها. ثم لما أعدّهم الله لها، وكتب السعادة لهم فقالوها، صاروا بها سادة الدنيا وخلاصة الإنسانية وملائكة البشر.

ونحن –يا سيدى يا رسول الله– نحن نقولها كل يوم، على منائرنا ومنابرنا، وفي أسواقنا ومنازلنا، وعند دهشتنا ومسرتنا، لا نرى كلمة أخف منها على اللسان، ولكنها لا تجاوز ألسنتنا ولا تبلغ أفئدتنا ولا يكون لها أثر في حياتنا، فهل نحن مسلمون؟

وجئتهم بالقرآن فحاربوه، ومنعوا القارئين أن يتلوه، وفرّوا منه حتى لا يسمعوه، ولكنهم كانوا إذا وقعت إلى أحدهم الآيات منه بدّلته تبديلاً وجعلته رجلاً آخر: أقبل عمر الغليظ الجافي، عدو الإسلام الألدّ، ليأتي الجريمة الكبرى، فسمع آيات معدودات، فإذا هو ينقلب إلى عمر المؤمن الرقيق العبقري الذي أدار وحده إحدى عشرة حكومة من حكومات هذه الأيام، بسلمها وحربها، وقضائها وماليتها، وداخليتها وخارجيتها، وجليل أمرها وحقيره؛ ما قصر في شيء منه ولا أساء، فكان نادرة الزمان وأعجوبة الفلك. ونحن نسمع المرتّلين يتلون القرآن في كل لحظة وفي كل مكان، في الأفراح والأتراح والحفلات والإذاعات، بحلوق لعلها أندى من حلوق قارئ عمر، ونغمات أحلى، وأصوات أشجى، ومعرفة بالتجويد وضبط للمخارج والأداء وبصر بالألحان، ولكنها لا تصنع بنا ما صنعت بعمر؛ ما نجد لها إلا الاهتزاز والطرب، كما نهتز لكل أغنية حلوة تسمعها آذاننا ونطرب لكل صوت شجي تعيه

أسماعنا، ثم نقوم عنها فنمضي في الحياة حيث توجهنا عقولنا وأهواؤنا، فهل نحن مسلمون؟

ودعوتَهم إلى الإيمان فآمنوا بالله إيمان مراقبة وخشية وتقى، واستحيوا منه أن يراهم عاصين مخالفين فاستقاموا على الطريقة، وجعلوا أهواءهم تبعاً لما جئتهم به، فإذا غلبتهم نفوسهم فألمّوا بذنب (ومَن هو الذي لا يذنب؟) تابوا إلى الله وأنابوا ولم يصرّوا ويستمرّوا.

* * *

يا سيدي يا رسول الله:

لقد أقمت الإسلام على خمسة أركان، فما زال الشيطان يغرينا بها حتى أزلناها أو زلزلناها؛ فكان فينا من يقول كلمة الشهادة ولا يؤدي حقها. ومن يدّعي الإسلام ولا يصلي، ومن يصلي بجوارحه ولسانه لا بقلبه وجنانه، يقوم إلى الصلاة ليستريح منها لا ليستريح بها، لا يجد فيها أنس نفسه ولا قرة عينه، فلا تنهاه صلاته عن فحشاء ولا منكر، فكأنه ما وقف بين يدي الله ولا ناجى بلسانه مولاه. ومن يدّعي الإسلام ولا يصوم، ومن يصوم عن أكله وشربه، لا يصوم عن قول الزور والعمل به، ولا يسلم المسلون من لسانه صائماً ولا يده. ومن يدّعي الإسلام ولا يزكي ولا يحج، ومن يحج ليسيح فيرى البلاد ويتّجر فيجمع المال، ويكسب من حجه الذكر والجاه، ما طهّر بالحج قلبه، ولا غسل ذنبه، ولا أرضى ربه.

وتركتَنا على بيضاء نقيّة، ليلها كنهارها، حلالها بيّن وحرامها بيّن، وقلتَ لنا إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه، ونهيتَنا أن نحوم حول الحمى لئلا نقع فيه، فتعدّينا حدود الله ودخلنا حماه، وأتينا المعاصي جهاراً نهاراً، لا نخشى عاراً ولا نخاف ناراً ولا رباً جباراً. وبلّغتَنا قانون الله الذي أنزله لنحكم به، وسقتَ إلينا أشد الوعيد وأبلغ التهديد إن نحن لم نحكم به، فتركناه وحكمنا بقانون فرنسة. فهل نحن مسلمون؟

* * *

يا سيدي يا رسول الله، صلى الله وسلم عليك:

لقد كان معك أربعون تخفيهم دار الأرقم في أصل الصفا، فأظهرهم الحق حتى فتحوا المشرق والمغرب. وكان لك منبر واحد؛ درجات من الخشب لا مزخرفات ولا منقوشات، فأسمعت منه الدنيا كلها صوت الحق، دعوتَها فلبّتْ، وأمرتَها فأطاعت. ولنا اليوم مئة ألف منبر، فيها النقش البارع والزخرف الرائع، يعلوها الخطباء فينادون: "يا أيها الناس، اتقوا الله"، فلا يتقي أحد، لأن الخطيب ما قال إلا بلسانه والمستمع ما استمع إلا بآذانه. قد فسد العلماء فهم يعلمون ولا يعملون، ويزهّدون من الدنيا ولا يزهدون، ويقولون: "الساكت عن الحق شيطان أخرس" ويسكتون، ويتلون: ﴿وللّهِ العزّةُ ولِرَسولِهِ وللمُؤمِنين﴾ ويذلّون للوزراء والأغنياء والسلاطين.

فسد العلماء ففسد الناس، فمن أين يُرتجى الصلاح؟

فنحن اليوم أربعمئة ألف ألف، أُمرنا بالجهاد لنفتح الدنيا

فقعدنا حتى فتح العدو أرضنا وملك ديارنا وحكم رقابنا، ولا نزال قاعدين نلهو ونلعب، نعينه على أنفسنا، ونهدم معه دورنا ودِيننا بأيدينا، وننظر ما لم يأتِنا هو به من شروره فنأخذه نحن بأنفسنا: أخذنا قوانينه وتركنا لها قرآننا، وعاداته وتركنا لها أخلاقنا، وفسوقه فأضعنا فيه أعراضنا!

* * *

ولكنّا لم ننسَ أن نحتفل بمولدك، وأن ننصب الأعلام ونذيع الأنغام، ونجتمع على الشراب والطعام. فهل يكفّر هذا ما أذنبنا؟ هل يعجبك -يا رسول الله- ما فعلنا؟ هل يرضى به ربك عنا؟

يا رسول الله:

لقد ركبتنا ظلمات فوق ظلمات، وحاقت بنا مصائب بعد مصائب، وخفتَ صوت المصلحين، وعلا نداء الضالّين المضلّين، وتوارى الحق وجال الباطل، فما العمل؟ ضاقت الحيل، وضعف الأمل، وانسدّت طرق الأرض، ولم يبقَ إلا طريق السماء!

* * *

من الصحراء إلى السماء

نشرت سنة ١٩٦٢

في مثل هذا اليوم في مكة، قبل الهجرة بسنة، أصبح محمد ابن عبد الله ﷺ يحدّث قريشاً أنه أُسري به الليلة البارحة من مكة إلى بيت المقدس، فطارت الدهشة بعقول القرشيين وقالوا:أنُمضي شهراً كاملاً في السفر إلى القدس وشهراً في العودة، وأنت تزعم أنك سَرَيتَ إليها ورجعت منها في ليلة واحدة؟ هذا مستحيل!

وقال مَن يعرف بيت المقدس منهم: صفه لنا حتى نرى وصفك.

فوصفه لهم بكل ما فيه، ما خَرَمَ منه شيئاً، فلم يصدّقوا.

فجاءهم بدليل آخر: خبّرهم أنه مرّ في وادي كذا بقافلة، سمعت جمالها حسّ الدابّة (أي البراق) فنفرت وضلّ جمل منها، فرآه وخبّرهم بمكانه لما مرّ بهم وهو راجع.

وأنه مرّ بقافلة أخرى قادمة إلى مكة، تصعد الثنيّة، يوشك أن تصل إليها، يتقدمها جمل أورق عليه غرارتان، إحداهما سوداء

والأخرى برقاء (رمادية). فلم تمر نصف ساعة حتى طلعت عليهم القافلة من وراء الثنيّة، وكانت كما وصف.

ومع ذلك لم يصدّقوه؛ لأن الأمر كان أعظم عندهم من أن يتصوّروا احتمال وقوعه.

* * *

يا أيها القراء، إن هذا الأمر الذي استعظمته قريش ولم تستطع عقولها أن تقبله ورأته أحد المستحيلات لا ترون أنتم الآن فيه غريباً؛ لأن كل واحد منكم يستطيع أن يذهب من القدس إلى مكة ويعود في ليلة واحدة.

ذلك أن الله ﷻ جعل الإسراء والمعراج آيتين، فأظهر إحداهما حتى يكون ظهورها حجة علينا إن أنكرنا الأخرى، وتعليماً لنا لندرك أنه لا يصحّ أن نجعل عقولنا البشرية وعلومنا الأرضية مقياس الصحة والبطلان في هذا الكون.

فلا تنكروا المعراج لأنكم لا تفهمونه كما أنكرت قريش الإسراء لأنها لم تفهمه.

إن قريشاً كانت تمضي شهراً في هذه الصحراء حتى تصل إلى القدس، فكانت ترى الصحراء شيئاً عظيماً، وكانت تمتلئ إكباراً لها وخوفاً منها، لا تتصوّر أن في الدنيا قوة تسوّغ للبشر أن يقهرها أو يترفّع عنها.

ولكن القرب والبعد، والكبَر والصغَر، كلها أمور نسبية؛

فالعصفور كبير إن قيس بالنملة، ولكنه صغير ضئيل إن قيس بالفيل. والصحراء عظيمة مخيفة والسفر فيها مهول مرعب بالنسبة لمن يمشي على الأرض، لا لمن يركب «البراق».

ولقد أدركت أنا عِظَمها وجلالها لمّا سلكناها سنة ١٩٣٥ في رحلتنا الكشفية لفتح طريق الحج بالسيارات.

لقد كانت سيارتنا أول سيارة وطئت هذه الصحراء من يوم برأها الله، فكانت تحجزها أكمة صغيرة فيها الحجارة، أو رابية واطية فيها الرمل، وكنا أمام الصحراء كنملة أمام الحوت، بل كنا أصغر من ذلك. إن النملة أمام الحوت شيء، ولكننا كنا في الصحراء كلاشيء!

إن ملايين وملايين من أمثالنا يولدون ويموتون والصحراء هي الصحراء؛ لا تحس بولادتهم ولا بموتهم.

لقد أمضينا في هذه الصحراء شهرين، كل ساعة منها بحساب الشعور شهور.

فلما جزت الصحراء بالطيّارة بعد ذلك، ونظرت إليها تمرّ من تحتي كثبانُها كأنها أكوام من التراب، وتبدو جبالها كأنها الروابي، وكنت أرى الأرض تُطوَى لي ويدنو بَعيدُها حتى قطعت في ساعتين المسافة التي أمضيت في قطعها شهرين اثنين، عندها رأيت الصحراء صغيرة جداً.

ولما ركبت الطيارة الكبيرة في طريق الهند جزنا بإيران ليلاً، فلم أرَ منها إلا أضواء متناثرة تحت، في الأعماق، بعيدة لا تكاد

تبين ولا يقف عليها النظر ولا تستحق الالتفات، مع أن حول هذه الأضواء مدناً وقرى ودنيا يتقاتل عليها الناس، ويختصمون، ويقيمون الدعاوى من أجلها، ويرتكبون الجرائم في سبيلها. إنهم يرونها كبيرة عظيمة تستحق أن يضيع فيها العمر ويُزهَد من أجلها في الآخرة، ولكني -لما علوت قليلاً- رأيت هذا الكبير صغيراً، وهذا العظيم تافهاً.

لقد تبدلت المقاييس في عيني وتغيرت القيم، لأني نظرت إليها من علوّ ثلاثة آلاف متر فقط، فكيف بمن يركب الصاروخ وينظر إليها من فوق طبقات الهواء؟

فكيف بمن يراها من الشمس؟

إذا كانت الأرض كلها تبدو من الشمس نقطة غبراء تائهة في الفضاء، فما قيمة هذا الإنسان الذي لا يجاوز طوله المترين، وما قيمة فكره البشري ومقاييسه الأرضية؟ وكيف يحق له أن يُلزِم الشمس أن تتبع في نظرها إلى الأشياء هذه المقاييس؟

هذا ونور الشمس يقطع في طريقه إلينا ثمان دقائق؛ أي أنها بعيدة عنا ثمان دقائق ضوئية، فماذا يقول أقرب نجم إلينا بعد الشمس، وهو يبعد عنا أربع سنين ضوئية ونصف السنة، أي ما يعادل خمسة وعشرين مليون مليون ميل؟ وكيف يرى أرضنا؟

وكيف إذا علمتم أن من النجوم ما يبعد عنا مئة وأربعين مليون سنة ضوئية؟ إن هذا النجم يرى الشمس وسياراتها كلها بالنسبة إليه أصغر من ذرة غبار في جو الهواء المحيط بالأرض!

وإن من النجوم ما لو أُلقي خمسة وعشرون مليون شمس من شمسنا فيه لوسع ذلك كله! وإن علماء الفلك استطاعوا أن يبصروا من هذه النجوم ألفاً وخمسمئة مليون نجم. وإن هذا كله في سديم واحد، وهذا السديم واحد من مليونين من هذه السُّدم. وإن هذه الآلاف من ملايين الملايين من النجوم تجري بسرعة رهيبة لمستقَر لها، وإنها بالنسبة إلى سعة الفضاء كعشر نحلات تمرح وحدها في كرة الأرض، واحتمال اصطدام هذه النحلات أكبر، وازدحام الأرض بها أكثر، لأن بين نجم وآخر ما لا يقل عن ثلاثمئة مليون مليون ميل.

هذا ما ذكره الفلكيون.

فأين السماء التي ذكرها القرآن من هذا كله؟

لقد خبط الناس في تفسير السماء خبطاً، حتى قال منهم من قال بأن السماوات هي مدارات السيارات. مع أن الله وصف السماء بأنها سقف مرفوع، وأنها بُنيَتْ بناء، وأنها سبعٌ طِباق، وأنه لا يُنفَذ منها، وأنه ليس فيها فروج، وأن هذه الكواكب تُزيّن السماء الدنيا، وفي حديث المعراج أن لها أبواباً.

وإذا وقفنا عند حدود هذه الأوصاف التي وصفها بها مَن خلقها، في كتابه الذي أنزله على رسوله، لا نستطيع أن نتصور السماء إلا بالصورة التالية (وأنا لم أعرف من قال بذلك ولا قرأته في كتاب، ولكن هو ما ينطبق، فيما أرى، على ما جاء في القرآن):

إن هذا الفضاء الهائل ليس إلا فراغاً في وسط كرة مطبقة؛

كرة لا يتصور العقل البشري عِظَمها، وهذه الكواكب كلها ليست إلا مصابيح زُيِّنت بها هذه الكرة لمن ينظر إليها من باطنها، أما سمكها فعلى مقدار عظمها. هذه هي السماء الدنيا. وهي وسط كرة ثانية أكبر منها هي السماء الثانية، وبينهما فراغ إذا قيس به هذا الفراغ الذي فيه الكواكب لا يُعَدّ شيئاً، وهي في وسط كرة ثالثة هي السماء الثالثة، وبعد الثالثة رابعة وخامسة إلى السماء السابعة. وبين كل سماء وأختها فراغ مثل هذا الفراغ الذي فيه الكواكب، وسمك كل سماء بمقدار هذا الفراغ.

وفوق ذلك كله مخلوقات لا يستطيع العقل البشري أن يلم (ولو إلماماً) بتصور كبرها. إن هذه الكواكب بالنسبة إليها كحبات معدودة من التراب في جبال همالايا. هي العرش والكرسي وسدرة المنتهى، والجنة التي عرضها كعرض السماوات.

فإذا كان هذا كله هو المخلوق فكيف بالخالق؟ والسماوات والأرض مطويات بيمينه، وهذا الكون كله قال له: «كُنْ» فكان بعجائبه وأسراره، وجليله وصغيره، من ضخامة هذه الأفلاك إلى دقة الجراثيم والكهارب في الذرة، ولو قال له: «زُلْ» لزال في الحال. أفيعجز عن أن يعرج بعبده إلى الملأ الأعلى؟! ما قَدَروا الله حق قدره.

إن بشراً واحداً رأى هذه العوالم قبل أن يموت، وهو محمد ﷺ، الذي رأى دنيانا هذه على حقيقتها. وما حقيقة الأرض كلها بالنسبة للسماء؟ بل ما الفضاء بكواكبه كلها بالنسبة لمخلوق واحد هو العرش؟ ما هذه الدنيا بالنسبة إلى الجنة التي هي بعرض

السماوات كلها؟ من هنا استصغرها وسَمَتْ همّته عنها وعمل لما بعدها.

هذا هو المعراج. فهل عرفتم الآن ما هو المعراج؟

* * *

ويتناقش العلماء: "هل كان المعراج بجسده وروحه أم بروحه فقط وهو نائم"؟ وهو خلاف لا معنى له؛ لأن الإنسان ليس بجسده. الجسد ثوب يُتّخذ لهذه الدنيا كما يتخذ الغوّاصون بدلة الغوص ما داموا في الماء، فإذا خرج الغوّاص ونزعها عنه لم تعد لها به علاقة. ومن يغوص بلا بدلة كان أعظم.

وسواء أكان المعراج بالجسد كما يقول الجمهور، أم كان بروحه وحدها وهو نائم كما يقول بعض العلماء وكما جاء في بعض روايات الحديث، فإن محمداً وحده هو الذي صعد إلى تلك العوالم.

ويستطيع مَن شاء من القرّاء أن يكذّب، وأن ينكر، وأن يقول: "هذا لا يمكن"، ويظن نفسه قد صار -بهذا الإنكار- من أعظم المفكرين. ولكن ليذكر أن قريشاً -لما كذّبت بالإسراء وقالت إن السفر من مكة إلى القدس في ليلة واحدة مستحيل- كانت تظن كذلك أنها كانت على حق، وأن العقل معها.

فلا تكونوا مثلها.

إن عقولكم البشرية، وعلومكم المستمَدّة من تجاربكم

الأرضية، لا يمكن أن تكون هي مقياس الصحّة والبطلان في هذا الكون العظيم.

والإيمان -يا سادة- نعمة؛ إنه راحة وسعادة في الدنيا، وإنه نجاة ونعيم في الآخرة. والملحدون الشاكّون يتعذبون في الدنيا بالشك قبل أن يتعذبوا في الآخرة بالنار.

* * *

هجرة محمد ﷺ

ألقيت هذه الكلمة في الجامع الأموي في الاحتفال بيوم الهجرة، ونُشرت سنة ١٩٤٣.

... في هذه الأيام التى ذاق فيها الأغنياء عَضّة المجاعة، والأقوياء ذِلّة الضراعة، ومشى داء الهمجية إلى ديار المتمدنين، وشمل الظلام مدائن النور، وهان الحق والعلم والفن، وعزّ السيف وغلى الرغيف...

في أيام الحرب السود، ولياليه[1] العوابس، تجتمعون آمنين مطمئنين، غيرَ جائعين ولا مروَّعين، فاحمدوا الله على نعمة السلام، فلولا خطرها ما كانت تحية الإسلام «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

يا سادة: في المشرق والمغرب، من شواطئ الأطلنطي إلى سواحل الهادي، في القرية الخاملة والمدينة الآهلة، يجتمع هذه

---

(١) هي كذلك في أصل المقالة. وفي المعجم أن الحرب لفظة مؤنثة، وقد تذكّر على معنى القتال. وقد نُشر المقال والحرب العالمية الثانية في أوجها (مجاهد).

الليلة إخوان لكم مثل اجتماعكم، قد تناسوا الحرب وأهوالها، والغلاء والبلاء، والموت آتياً من الأرض ومنصبّاً من السماء، ليحتفلوا في أيام الحيرة والخوف بذكرى الهدى والأمان، ويهتفوا باسم مَن أدرك العالم حينما دهمه ليل كهذا الليل، فأطلع عليه من نور الحق فجراً ساطعاً، ليهتفوا باسم سيد العالم: «محمد» ﷺ.

يا سادة:

إن لكل أمة مواسم تجتمع فيها، وذكريات تحييها، وعظماء يمجدهم خطباؤها، ومآثر يفخر بها شعراؤها. ولكن الذكرى التي اجتمعنا لأجلها لا تُقاس بها الذكريات؛ إنها أجلّ منها وأعظم. إن الحادث الذي جئنا لتمجيده لا تشبهه الحوادث؛ إنه أعزّ على التاريخ منها وأكرم، إنه أسمى من كل مأثرة فخرت بها أمة، واعتزّ بها جيل. فإذا أردتم أن تروا فيمَ كان جلالها وسموّها فدعوا هذا الحاضر لحظة وأوغلوا معي في مسارب الماضي؛ مرّوا بين القرون وتخطوا أعناق السنين، حتى تقفوا على القرن السابع الميلادي وقد أهلّ على دنيا رثّتْ فيها حضارة الأولين، ونُسي الدين، وآضت[1] العبادات عادات، والعلم ترديداً بلا فهم، والفن تقليداً بلا تجديد، وأخذ الملوك الطغاة بمخانق الشعوب، ونخرت الفوضى عروش الطغاة، وسكت العلماء وهربوا إلى الصوامع، وأيس المصلحون واختبؤوا في الأغوار، وأوشكت الإنسانية أن تتردى في هوة ما لها من قرار!

---

[1] آضَ يئيضُ أيضاً: عاد، ويقال: آض إليه. وآض الشيءُ كذا: تحول إليه؛ يقال: آضَ الثلجُ ماءً (مجاهد).

هنالك، وقد غلب اليأس، بعث الله الفرج على يد رجل؛ رجل واحد طلع من وسط الرمال المتسعّرة الملتهبة التي يُشوى عليها اللحم، لحم كل عادٍ يطأ ثراها وعاتٍ يريد بالشر حِماها، من القرية التي هجعت دهراً بين الحرّتين، لا يدري بها قيصر ولا يحفِلها كسرى، من أرض الفطرة والحرية التي لم تبلغها أوضار[1] المدنيّة، من حيث انبثقت الحياة البشرية أول مرة: من جزيرة العرب...

رجل واحد قام وحده لإصلاح الدنيا، قال لقريش سادة العرب: اتركي هذه السيادة؛ فالناس كلهم سواء، لا فضل إلا بالتقوى والأخلاق وبارع الخِلال. وقال للعرب المشركين: حطموا هذه الأصنام، فإنها لا تضر ولا تنفع، واعبدوا الله الواحد الأحد. وصرخ بكسرى وقيصر أن دعا هذا الجبروت الظالم وهذه الربوبية الكاذبة؛ فما كان بعض البشر أرباب بعض، واتبعاني أجعل منكما عبدين للّه صالحَين!

فثارت به قريش، وقام عليه العرب، وعاداه الملكان كسرى وقيصر، وأُعلنت أقدس حرب وأعجبها: الحرب بين محمد وبين العالم كله، الحرب التي انتصر فيها محمد على الدنيا!

ولكن ما شأن الهجرة في ذلك؟ ليست الهجرة -يا سادة- انتقالاً من مكة إلى المدينة، وليست سفراً كالأسفار، ولكنها المرحلة الأولى من هذا الزحف المجيد للحملة التي جرّدها الله

---

[1] الأوضار هي الأوساخ، والفعل منها: وَضِرَ يوَضَرُ وَضَراً. وهي مفردة كثيرة الدوران في كتابات جدي رحمه الله (مجاهد).

على الكفر والظلم والفحشاء والمنكر وجعل قائدها محمداً ﷺ.

إنها الخطوة الأولى من هذا الزحف الذي لم يقف ولم يتباطأ، حتى امتدّ من الهند إلى مراكش، ثم عبر البحر من هنا إلى الأندلس، ومن هناك إلى البلقان، ثم دخل في الزمان واجتاز العصور حتى انتظم أربعة عشر قرناً، وغمر نصف المعمور بالنور، ثم إنه سيمتد حتى يبلغ آخر الزمان ويعمّ الأرض كلها.

إن الهجرة هي الحلقة الأولى من سلسلة المعارك الظافرة الفاصلة التي خضناها دفاعاً عن الحق والعدل، والتي منها بدر والخندق والقادسية واليرموك، ونهاوند وجبل طارق، وعمورية والحدث، وحطين وعين جالوت والقسطنطينية، وطرابلس والغوطة وجبل النار.

لقد مشى محمد ﷺ ليزيح الظلام ويحطم طواغيت الظلم حيثما قامت... وقريش الحمقاء تحسب أنه بُعث لها وحدها، وأن مدى رسالته متسَع هذا الوادي، وأنه هاجر خوفاً منها، لذلك بعثت رسلها ينفضون الأرض ليأتوا به ويرجعوه إليها.

يا لجهالة قريش، ويا للغرور السيء ما يصنع بأهله!

مَهْ يا قريش الحمقاء؛ إنك لا تعرفين من هو محمد ولا تدرين ما رسالته! مه يا قريش؛ دعيه يمر، إن في يثرب أنصاراً له ينتظرونه. إن وراء الرمال، في بلاد الظل والماء، شعوباً ترتقب مجيء النبي، قد علّقت به آمالها، ونفد في ترقّبه صبرها. إن وراء القرن السابع أمماً لا تزال فى أحشاء الغيب تنتظر النبي، فهل

حسبت قريش أن في الغار رجلين اثنين؟ إن فيه أمل الدنيا؛ فيه رحمة اللّه للعالمين. فيا لجهالة قريش حين تريد أن تمنع رحمة الله عن العالمين!

* * *

أتعرفون ماذا صنع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

وجَدَ العرب قبائل وبطوناً؛ لكل قبيلة عالَم، ولكل بطن دين، آلهتهم شتى، وأربابهم أصنام، همهم سيف يُجرَّد، أو جمل يُنحَر، يأكل بعضهم بعضاً؛ فبكرٌ تحارب تغلبَ، وعبس وذبيان، واليمن ومُضَر. لهم ملوك في مشارف الشام وأطراف العراق، ولكن ملوكهم خَوَل لكسرى وقيصر، يقتلون إخوانهم في العروبة في سبيل الأجنبي.

وجد في مكة، وهي حاضرة العرب ودارة قريش، بضعة عشر يقرؤون ويكتبون، وسائر أهلها أميين. ووجد علماء العرب هم الكهّان والشعراء، أولئك يَسجعون فيهرفون بما لا يعرفون، وهؤلاء يشبّبون ويمدحون ويذمون!

أفبهؤلاء يصلح العالم الفاسد؟ إنه لموقف يُؤيِس العظيم، ولكن محمداً لا يعرف اليأس أبداً، ولا يعرفه أتباع محمد!

إنه يريد أن ينشئ من الأمة المشركة المتفرقة الجاهلة أمة واحدة مؤمنة عالمة، فليصنع كما يصنع البنّاء: يضع الحجر على الحجر فيكون جداراً. وكذلك فعل محمد ﷺ: بنى أمّة صغيرة من ثلاثة؛ من رجل وامرأة وصبي، من أبي بكر وخديجة وعلي،

فكانت نواة هذه الأمة الضخمة التي ملأت -بعدُ- الأرض، وكان أسلوباً يخلق احتذاؤه بكل مصلح.

ثم صار المسلمون عشرة، ثم تمّوا أربعين، فخرجوا يعلنون الإسلام بمظاهرة لم تكن عظيمة بعددها ولا بأعلامها وهتافها، ولكنها عظيمة بغايتها ومعناها، عظيمة بأثرها، عظيمة بمن مشى فيها: محمد وأبو بكر وعمر وعلي وحمزة، أربعون لولا محمد ﷺ لعاشوا ولماتوا منكَرين مجهولين، فلما لامسوه وأخذوا من نوره وسرت فيهم روح من عظمته صاروا من أعلام البشر، وصارت أسماؤهم مناراً للسالكين. فلما صاروا ثلاثمئة خاضوا المعركة الأولى في الدفاع عن الحق؛ معركة بدر. فلما بلغوا عشرة آلاف فتحوا مكة وطهّروا الجزيرة العربية. فلما بلغوا مئة ألف فتحوا الأرض!

فتحوا الأرض، فلما انقادت لهم فتحوا القلوب بالعدل، والعقول بالعلم، فما عرفت هذه الدنيا أنبل منهم ولا أكرم، ولا أرأف ولا أرحم، ولا أرقى ولا أعلم، ولا أجلّ ولا أعظم!

فإذا كان فى العظماء من كشف مكروبات، فمحمد قد كشف أبطالاً. وإن يكن فيهم من داوى مريضاً، فمحمد قد داوى أمماً. وإن يكن فيهم من برع في الحرب وفي فن القتل، فحمد كان فنّه الإحياء والهدى. وإن يكن فيهم من ألّف قصصاً وروايات، فالذي صنعه محمد ﷺ لو تخيّله قاصٌّ أو أديب لكان أكبر الأدباء، فكيف بمَن أقامه من الحس لا الوهم، والحقيقة لا الخيال؟ وإن يكن فيهم من أفضل على أمة، فمحمد قد أفضل على الناس كلهم؛

فما على الأرض أمة لم تستضئ بنور دعوته، ولم تقتطف من ثمار حضارته، ولم تنتفع في قضائها بشريعته.

أفبلغ بالناس أن ينسوا فضل محمد عليهم؟

إن ينسَ الناس فما نسي التاريخ، وإن تسكت الألسنة تروِ الصحف: سلوا النظامية والمستنصرية والأزهر، سلوا دجلة كم أُلقي فيه من نتاج أدمغتنا، سلوا الأندلس كم أُحرق فيها من ثمرات عقولنا، وما نقصت كتبنا بما أُغرق وما أُحرق. سلوا جامعات الغرب: ألم تَعِش على كتب ابن سينا والإدريسي والبيروني دهراً طويلاً؟ سلوا تلك البيض: هل جُرّدت إلا دفاعاً عن الحق والفضيلة والمثل الأعلى؟

بل سلوا قلوبكم وما صنع فيها الإيمان، ترَوا أن هذا الإرث القليل الذي وصل إليها يثبت أن الإسلام هو أعظم شيء عرفه هذا الوجود. إننا -برغم ما صنع الدهر بنا وما صنعنا بأنفسنا حين أهملنا شريعتنا- لا نزال نحتفظ بعزة المؤمن الذي يعلم أن الأجل محتوم، فلا يخاف أن يعاجله الموت إن صدع بحق أو خاطر في واجب، وأنه لا إله إلا الله، لا يضرّ ولا ينفع سواه، فلا يخاف مع الله أحداً.

قم حيثما شئت من ديار العربية التي قبست من نور محمد ﷺ ثم ادعُ باسم الدين وباسم العرض، ترَ كيف تُقتحَم الأهوال وتُستسهَل الصعاب. بل ادعُ بذلك في بَوادي نجد وفيافي اليمامة تلبّك رمالها وتنقلب فرساناً إن لم تجد من الناس ملبياً.

لا تعجبوا يا سادة؛ فإن من معجزات محمد ﷺ أن جعل أتباع دينه كلهم (على رغم أنوفهم) أبطالاً!

* * *

إننا اجتمعنا في محبة محمد، ولكن منا من لا يعرف -على حقيقته- محمداً ﷺ!

لم يكن محمد ﷺ عبقرياً فحسب، وإن آتاه الله كل صفات العبقريين. ولم يكن نبياً فقط، وإن جعله الله خاتم النبيين. بل كان بشراً عظيماً أوحي إليه بدين عظيم، فهو -بشراً- أعظم البشر على الإطلاق: في كبر عقله، ونبل نفسه، في سمو خلاله، في أحاديثه وأقواله، في آثاره وأعماله. إنه ليس من العظماء (أو قلَّ فيهم) من عُرفت حياته بدقائقها وتفاصيلها كمحمد ﷺ، فانظروا أيّ خلق عظيم لم يتخلق به، أيّ موهبة لم يُعطَها، أيّ مكرُمة لم ينلها؟

وهو-نبياً- أعظم الأنبياء على الإطلاق؛ جاءت الشرائع الماضية بأحكام تصلح لزمان واحد، وكانت شريعته قواعدَ وأسساً تُستخرَج منها الأحكام التي تصلح لكل زمان، شريعة عقل لا تخاف العقل ولا تجزع من اعتراضاته، بل تواجهه وتتحداه وتدعوه إلى المناقشة مهما كان مُدّعاه. لما قالوا المقالة الشنعاء قال لهم: ﴿أإلهٌ مَعَ اللّه؟ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾: تعالوا ناظرونا، نقرع دليلكم بدليلنا، وما نغلبكم إلا بقوة البرهان. شريعة تدعو إلى العلم النافع، رياضياً كان أو طبيعياً أو اجتماعياً، وترغّب فيه وتحضّ عليه. شريعة جمعت ديناً وعبادة، وتشريعاً وسياسة، وأخلاقاً واجتماعاً. إن الدنيا بغير شريعة محمد ﷺ جسم بلا روح، ولفظ بلا معنى!

فما بالنا نظلم الإسلام ونظن به العصبية والجمود؟ ما بالنا نستحيي به ونحسبه يعود بنا إلى الوراء، والإسلام -مُذ كان- دين سماحة وعقل وتقدم؟ ألا لقد آن لنا أن نفهم الإسلام على وجهه، وأن نعرفه على حقيقته، ونأخذه من منابعه لا من أفواه أشباه العلماء ولا من أشباه الكتب، وأن نعتزّ بالانتساب إليه وأن نرفع الرأس فخراً، وأن نجعله إمامنا في حياتنا.

* * *

يا سادة:

إننا طالما احتفلنا بهذه الذكرى ونحن محزونون متألمون، أدنى إلى اليأس وأبعد عن الأمل، فلنحتفل بها اليوم ونحن فرحون مستبشرون، فقد بدا لنا النور، ودنت الأماني، ولاحت أعلام الوحدة ودقت طبولها. وقد طالما هجعنا ومرّت بنا ليالٍ حوالك طِوال، فَتَرَتْ فيها الهممُ وخَبَت العقول، ولكن وقت النوم انقضى، وأذّن مؤذّن النهضة: حي على الفلاح... فنفضنا عن أنفسنا غبار الأحلام... ونهضنا.

لقد كُتب على المسلمين أن يذِلوا، ولكنها مرة واحدة، وقد مرّت ولن تعود!

لقد انبلج الفجر، وانتهى الليل، وبدا نور النهضة، نور الاستقلال والوحدة، فأقسموا في هذا البيت الأطهر، في هذا اليوم الأنور، أنكم لن تناموا ولن تَنُوا ولن تضعفوا؛ فما ينال المجدَ نائمٌ ولا وانٍ ولا ضعيف!

إن محمداً علمنا معنى العزة والكرامة، وعرّفنا قيمة العقل والعلم، وشرع لنا شرعة الإيمان والعدل والإحسان، فلنعد إلى ما شرع الله على لسان محمد ﷺ؛ نفتح فى التاريخ صفحة مجد وسمو ونبل كالتي كتبها أجدادنا.

ألا إنها كلمة صدق؛ ألا إنه لا يَصلح آخرُ هذه الأمة إلاّ بما صلُح به أولها. ألا إنما أعز الله العرب بالإسلام، فإن ابتغوا العزة بغيره ذلّوا.

فارفعوا راية القرآن، ثم اعملوا شباباً هم في الحكمة شيوخ، وشيوخاً هم في العزيمة شباب، جحافل من جنود الحق تصل يومَ القادسية واليرموك بأيام الغوطة والريف وجبل النار. اعملوا للوحدة الكبرى، فإنها حياتنا لا حياة لنا إلا بها. أقيموها على صخرة الإسلام الراسية، لا تعبث بها الزعازع ولا تزلزلها الأعاصير.

إنها قد ضجّتْ في العروق الدماء، وتلوّتْ في الأغماد الصفائح، فانشروا اللواء، وسوقوا الخميس، لتُعلِموا الإنس والجن أنه لا يزال في عروقنا ذلك الدم الذي نضح الأرض، وفي قلوبنا ذلك النور الذي أضاء الدنيا، وفي سواعدنا ذلك العزم الذي هدّ بروج الطغيان وتهاوت له التيجان، وفي أفواهنا ذلك النشيد الذي علا في كل مكان، فكانت تخشع له الرواسي وتطأطئ الشامخات: «لا إله إلا الله... والله أكبر»!

* * *

من صور الهجرة

أذيعت من إذاعة دمشق نحو سنة ١٩٥٥، والمقالة منشورة في أول كتاب «رجال من التاريخ»

نحن الآن في مكة، والحرب قائمة بين التوحيد والشرك، بين الإصلاح والجمود، بين محمد وقريش. وبذلت قريش قوّتها، وبذلت قريش مالها، وقدمت دنياها كلها، في شيء واحد: هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا. قال محمد ﷺ: «افتحوا لي الطريق لأخرج إلى الأرض الفضاء، فأنصر الضعيف، وأنجد المظلوم، وأعيد للبشرية كرامتها، وللعقل سلطانه». قالوا: لا.

قال: «افسحوا لرسالتي لتنطلق في الزمان، فإنها ليست لبلد واحد، ولا ليوم واحد». قالوا: لا؛ ولكن تعال نملّكك إن شئتَ علينا، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيد هذا البلد كله.

وسخر التاريخ من قريش! يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الأرض وزعامة الدنيا، ويضع في أيديهم مفاتيح الكنوز: كنوز المال وكنوز العلم، ويمنحهم ما يملك كسرى وقيصر، وهم

يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية النائمة بين جبلين وراء رمال الصحراء.

وانطلقوا يؤذونه ويتوعّدونه، لعلّ الترهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب.

رموا في طريقه الشوك وهو ماشٍ، وألقوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد، ورموه في الطائف بالحجارة وأسالوا دمه، وهزئوا به، وسلّطوا عليه سفهاءهم. فلم يُثِر هذا كلُّه غضبَه ولكن أثار إشفاقه، إشفاق الكبير على الأطفال المُؤذين، والعاقل على المجانين، وكان جوابه: «اللهمّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون».

ولم يصرفه عن وجهته شيء، إلاّ إنْ صرَفَ القمرَ عن مسيره في قبّة الفلك زرٌّ وردة تلقيه عليه، أو حجرٌ ترميه به.

وآذَوا المسلمين الأولين ليفتنوهم عن دينهم، وعذّبوهم، وكانوا يبطحون المسلم عارياً على الرمال الملتهبة التي يُشوى عليها اللحم، ويضعون عليه الصخرة الهائلة ويلوّحون له بالماء ويقولون: اكفر برب محمد حتى نسقيك وننجيك. فيقول: «أحد، أحد!»، وتشغله لذّة المناجاة عن لذعة العذاب، ونشوةُ الأمل بالجنة عن شقوة الألم في الدنيا.

احتملوا في سبيل الله كل شيء: الضرب، والجرح، والحرق، والجوع، والسهر، واستحْلَوا في سبيل الله المرائر، واستحبّوا أبغض المكاره إلى النفوس إن كان فيها رضا الله. ودعاهم الرسول ﷺ إلى ما هو أشد من هذا كله؛ إلى فراق الوطن وترك الأهل، وأن

يمشوا فراراً بدينهم إلى بلاد ليسوا منها وليست منهم، ولا لسانها لسانهم ولا دينها دينهم؛ فخرجوا من منازلهم وهجروا أهليهم، ومشوا إلى الحبشة فلحقهم أذى قريش إلى الحبشة.

وأوغلت قريشٌ في كفرها وصدّها وعنادها، ولكن هل تقدر قريشٌ أن تطفئ نور الله؟

إن البخار الذي من طبعه الانطلاق إلى العَلاء لا يُحصَر في زجاجة، وإنْ حصرتَه وجد منفذاً أو مزّق الإناء، وكذلك صنع الإسلام.

* * *

وهاجر المسلمون مرة ثانية، ولكنها هجرة إلى ديار عربية؛ إلى قرية قُدِّر لها أن تبقى الدهرَ كله خاملةً ضائعة وراء الرمال، حتى تتشرف بمحمد، فإذا هي أم المدائن، وعاصمة العواصم، منها تنبع عيون الخير والهدى لتسيح في الأرض فتسقيها وتعمّها بالخيرات، وإليها تنصبّ أنهار الملك والغنى والسلطان من كل مكان. هاجر المسلمون جميعاً ولم يبقَ في مكة إلاّ النبي ورجلان اثنان؛ مرافقه في السفر، ووكيله في مكة. رجلان كانا أول من أسلم وآخر من هاجر: سيد الكهول أبو بكر، وسيد الشباب علي.

تأخّرَ محمد ﷺ كما يتأخر الربان الشريف على ظهر الباخرة الميئوس منها؛ فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً. وكما يتأخر الراعي الأمين عند المفازة؛ فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله. تأخّرَ يحمي أتباعه، ويستقبل بصدره الخطر.

وجاء الخطر على أشد صوره وأشكاله. اتفق زعماء قريش على ارتكاب أكبر جريمة في تاريخ الجنس البشري. جريمة لو تمت لما كانت في التاريخ دمشق ولا بغداد ولا القاهرة ولا قرطبة، ولا كانت للراشدين دولة، ولا للأمويين، ولا للعباسيين، ولا فتح بنو عثمان القسطنطينية، ولا بُنيَ الأموي ولا النظامية ولا الحمراء، ولما قامت الحضارة التي قبست منها أوربا حضارتها: من الشام في الحروب الصليبية، ومن الأندلس بعد ذلك، ولبدّلَ التاريخ طريقَه، ولكنّا اليوم على حال لا يعلمها إلاّ الله.

وهنا تتجلّى رجولة محمد وشجاعته وثبات أعصابه، وهنا يظهر نصر الله لأوليائه؛ حين فتح محمد ﷺ الباب، وخرج يشق صفوفهم، يقتحم الجموع التي جاءت تطلب دمه. أرادوا قتله وأراد الله حياته، فتمّ ما أراد الله. وروعتهم المفاجأة وأعمت أبصارهم، وما عادوا إلى أنفسهم حتى كان محمد ﷺ قد مضى، وصحوا كأن حلماً مرّ بهم، وشقّوا الباب ونظروا ليتوثقوا، فرأوا فراش محمد وفيه رجل نائم، ففركوا عيونهم وتنفسوا الصعداء.

* * *

وأدركت قريش الحقيقة بعدما مضى محمد، وعمّ الصريخ مكة وضواحيها، وخرج القرشيّون فرساناً ومشاة يركضون خيولَهم ويعدون إلى كل ناحية يتلفتون مذعورين.

ما لهم؟ ما لهم وهم حماة الديار وفرسان المعارك، قد أطار الفزع ألبابهم وصدع الذعر قلوبهم؟ ما لكم يا ناس؟

قالوا: خرج محمد!

"وماذا تطلبون منه؟ أأخذ أموالكم؟". قالوا: معاذ الله؛ إنه الأمين المأمون أدّاها عن آخرها.

"أأجرم جريمة فأنتم تطلبونه بها؟". قالوا: حاشا للّه، إنه أحسن الناس خلقاً وأطهرهم يداً.

"ماذا تريدون منه؟". قالوا: إنه سيجنّد الدنيا كلها لمحاربة أربابنا وأصنامنا وجهلنا وكبريائنا، سيضطرنا إلى هدم الحجارة الجامدة وعبادة الله الواحد، واتباع سبيل الهدى والخير والسداد.

أهذا الذي تنقمون من محمد؟

وسخر التاريخ من قريش مرة ثانية!

وعادت قريش بخزيها، وهاجت الجزيرة ضدّ محمد ﷺ، ووُضعت الجوائز، (مئة ناقة)، لمَن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً.

وبعد أن فارق محمد ﷺ وصاحبه الغارَ لحقهم فارس[1]، وخاف أبو بكر وقال: «والله ما على نفسي خفت، ولكن عليك»، فأجاب محمد ﷺ بالكلمة التي تجمع وحدها معجزات الإيمان، مهما تعددت صورها، من الشجاعة والتضحية والثبات والإيثار، قال: «لا تحزن؛ إن الله معنا».

---

[1] هو سراقة. وقد تعاورت هذه الحادثةَ أقلامٌ، وأُخرجت فيها أفلام. وكنتُ أول من تنبّه إليها، وكتبت فيها قصة نُشرت في العدد الممتاز من «الرسالة» الصادر يوم ١٢ محرم سنة ١٣٥٤ هـ. «قلت: وقد أثبتّها في هذا الكتاب، وهي في الصفحة ٩١ منه (مجاهد).»

إن الله مع مَن يكون مع الله، إن الله ينصر من ينصره، فلا يحزن من كان الله معه.

إن جبهة معها الله لا تنكسر ولو كان ضدّها الوجود كله!

* * *

ومشى الموكب إلى الدنيا الواسعة. موكب صغير، ولكنه أجلّ من أعظم موكب أحست بوطأته هذه الكرة التي نمشي على ظهرها، ولم تعرف موكباً أنبل منه قصداً، وأبعد غاية، وأخلص نيّة، وأعمق في الأرض أثراً.

موكب صغير يمشي في الصحراء الساكنة، لا رايات ولا أعلام، ولا أبواق ولا طبول، ولا تقوم له الجند على الصفين، ولا يصفق له الناس من النوافذ، ولكن تصفق الرمال فرحاً بالذي سيضفي عليها ثوب الخصب والنماء، وتُزهَى الجبال طرباً بالذي سيقيم عليها أعلام النصر والعز، وتبرز من بطن الغيب جحافل القوّاد والعلماء الذين أنبتهم مسير محمد في هذه الصحارى.

حتى أشرف على المدينة. وأقبلت جموعٌ كالجموع التي خلفوها في مكة. ولكن تلك كانت للشر، وهذه للخير. وتلك تنادي بالموت لمحمد، وهذه تنادي بالحياة لرسول الله ﷺ.

وكانت هذه نقطة التحول في التاريخ الإسلامي.

كل ما قبلها هزائم، وما بعدها إنما هو نصر إثر نصر. ولذلك جعلناها ابتداء تاريخنا.

* * *

ها نحن أولاء الآن على أبواب المدينة وقد خرجت كلها تستقبل محمداً، ولو استطاعت من الحب لفرشت له الطريق بقطع أكبادها حتى يمشي على قلوبها. وكانت تنشد نشيد الاستقبال:

طلع البدرُ علينا   من ثنيّات الوداعْ
وجبَ الشكر علينا   ما دعا للّه داعْ

وها هم الناس يسألون: أيّهم هو؟ أيّهم محمد؟

لا يعرفونه؛ لأنه لم يكن ملكاً، ولا يلبس الحرير، ولا تلوح عليه شارات الملك، ولا يتألق على جبينه التاج. بل كان عبداً للّه متواضعاً، يلبس ما يلبس الناس، ويأكل ما يأكلون، ويجوع إن جاعوا، ويشبع إن شبعوا.

ولقد كان في أصحابه الأغنياء الموسرون، ولكن محمداً ﷺ أحبَّ أن يعيش فقيراً وأن يموت فقيراً.

وحسبوا أبا بكر هو النبي، فكانوا يسلّمون عليه وهو يشير إلى الرسول يقول لهم بيده: ها هو ذا محمد. وأقبلوا يدعونه لينزل فيهم يتسابقون على هذا الشرف الخالد.

فماذا صنع؟ انظروا إلى لطفه ولباقته؛ إنه لا يريد أن يؤذي أحداً بالرفض، فقال: اتركوا الناقة فإنها مأمورة.

ومشت الناقة حتى بركت عند دار أبي أيوب الأنصاري. أبو أيوب الذي كتب الله له أن يحضر -بعدُ- حرب القسطنطينية وأن يوغل في الهجوم يريد أن يموت في أبعد مكان، فمات ودُفن على

ضفاف البوسفور، وبقي قبره يدعو المسلمين إلى فتحها قروناً طِوالاً، حتى كتب الله هذا الثواب للسلطان محمد الفاتح.

نحن الآن مع محمد ﷺ في المدينة. إنه يؤسّس الدولة الجديدة، فبِمَ ترونه يبدأ؟ بمهرجان فخم يبايعونه فيه بالملك؟ إنه لا يريد الملك! يبني ثكنة باحتفال عظيم ويجيّش جيشاً؟ إنه لا يبتغي العلوّ في الأرض! يفرض الضرائب؟ لا؛ ولكن يبدأ بعمارة المسجد.

إنها ظاهرة عظيمة يحسن أن يقف القارئ عندها. يبدأ بالمسجد، كما بُدئ الوحي بآية «القراءة» و«التعليم» بالقلم.

بدأ بالمسجد، والمسجد في الإسلام هو المعبد (رمز الإيمان)، وهو البرلمان (رمز العدل)، وهو المدرسة (رمز العلم).

ولم يغصبه؛ بل شراه بالمال، وذلك «رمز» الإنصاف. ولم يأمر ببنائه ويقعد، بل شارك أصحابه العمل وحمل الحجارة بيده، وهذا «رمز» الديمقراطية. وبناه من اللبن والطين، بلا زخارف ولا نقوش، وهذا «رمز» البساطة[1].

فكان من هذه «الرموز» (الإيمان والعدل والعلم والإنصاف والديمقراطية والبساطة) مجموعة شعائر الإسلام.

* * *

---

[1] البسيط في اللغة الواسع المبسوط، ولكني أردت معناها الشائع.

يوم الهجرة

أذيعت من إذاعة دمشق نحو سنة ١٩٥٥، والمقالة منشورة في أول كتاب «رجال من التاريخ»

اليوم تغلق الدواوين[1] أبوابها، وتسرّح المدارس طلاّبها، وتُرفَع الأعلام في النهار، وتوقَد السُّرُج في الليل، احتفاءً بذكرى الهجرة.

ثم يمر اليوم كما مرَّ الأمس ويمر الغد، لا يسأل ولدٌ أباه ما معنى الهجرة؟ وإلامَ يشير هذا اليوم؟ ولا يحدّث أبٌ ولده وأهله حديث الهجرة؛ لأن أكثر الآباء لا يعرفون من سيرة نبيهم وهاديهم إلاّ القليل الغامض، الذي لا يفيد علماً ولا ينفي جهلاً، ولا يأتي منه شيء.

مع أن على كل رب أسرة أن يكون في بيته كتاب جامع من كتب السيرة، وأن يقرأ فيه دائماً، وأن يتلو منه على أهله وأولاده، وأن يجعل لذلك ساعة كل يوم؛ لينشؤوا على معرفة سيرة الرسول الأعظم ﷺ، فإن سيرته الينبوع الصافي لطالب الفقه، والدليل

---

(١) في بعض البلدان.

الهادي لباغي[1] الصلاح، والمثل الأعلى للأسلوب البليغ، والدستور الشامل لكل شُعَب الخير.

وأنا من ثلاثين سنة أكتب وأخطب في الهجرة[2] ما انقطعت عن ذلك سنة، ولا أزال -مع ذلك- كلما فكرت فيها بدت لي في أخبارها ملاحظات وعبر لم تكن قد بدت لي من قبل، ونظرت إليها من جوانب جديدة فرأيت قديمَها جديداً، فهي كالنبع الذي لا يزداد على الاستسقاء إلاّ غزارة وعذوبة وصفاء.

* * *

ومن المعروف المشاهَد أن الألفة تُذهب العجب، ونحن لا نعجب لطيران بيت ضخم من الحديد والفولاذ، ولا لنطق صندوق صغير من المعادن والأسلاك، لأننا ألفناه وعرفناه، مع أن ذلك عجيب في ذاته، وفوق العجيب. وكذلك نحن حين نقرأ سيرة الرسول ﷺ، نمرّ بخبر الحادث المدهش فلا نكاد -من ألفتنا إيّاه وتكرار سماعه- نفكر فيه أو ندهش منه. ولو سمعنا الآن أن رجلاً أمياً، لم يدخل مدرسة، ولم يحضر حلقة علم، ولم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وقام (على ذلك كله) في قرية معتزلة في صحراء منقطعة، ليصلح وحده الدنيا كلها، ويمنع الحروب منها، وينزع سلاح الدول القوية العاتية، ويكلفها بأن تترك دنياها وعتوّها وأن تتبعه... لبلغت بنا الدهشة أبعد الغايات! فكيف إن سمعنا -بعدُ-

---

[1] باغي الصلاح: أي قاصده.

[2] خطبتُ أول خطبة فيها سنة ١٣٤٥ هـ في الاحتفال السنوي للمدرسة الأمينية. نسأل الله حسن الخاتمة.

بأن هذا الرجل تبعه نفر قليل من الضعفاء المساكين، وأنه حمل هو وهؤلاء النفر أشد أنواع الأذى الجسمي والنفسي، فثبت وثبتوا على ذلك كله ثباتاً ليس له نظير في تاريخ البشر؟

وكيف لو سمعنا بأن هذا الرجل قد نجح، وأنه لم تمضِ على دعوته ثلاثون سنة حتى خضعت لها أكبر دولتين في الدنيا اليوم: روسيا وأميركا مثلاً، واتبعتا ما جاء به، وقبل به وتحمس له شعباهما حتى سبقا في ذلك أتباعه الأولين؟

وأن هذا الرجل الأميّ الذي لم يتعلم قد جاء بكتاب، هو دستور، وهو قانون مدني، وهو قانون للأحوال الشخصية، وهو قانون جزائي، وهو قانون دولي، وهو مذهب أخلاقي، وفيه تاريخ، وفيه لفتات علمية عجيبة، وفيه رفع للنفس البشرية إلى أعلى أجواء الطهر والعبقرية والعظم، وهو -بعد ذلك- مكتوب بأسلوب لا يمكن أن يجاريه إنسان أو أن يجيء بمثله؛ لأنه جاوز أرفع طبقات البلاغة البشرية؟

وأن هذه الدعوة لم يكن نجاحها فورة سريعة، ولا كانت وثبة كنار القش، تشبُّ في لحظة وتخمد في لحظة، بل كانت شيئاً أخلد من الخلود وأبقى من الدهر، وأنها -بعدما مرّ عليها أربعة عشر قرناً من الزمان، وبعدما مرّت بأربعين ألف كيل على الأرض، وبعدما بلغت آفاق الدنيا- لا تزال في نفوس أتباعها على القوّة التي كانت عليها في ابتدائها، ولا تزال على صفائها وطهرها، كلما علقت بها أوضارُ الزمان انتفضت انتفاضة فعادت كما كانت؟

كم يكون عجبكم من هذا الرجل لو ظهر مثله من جديد؟

هذا الذي صنعه محمد يا أيها السادة؛ هذا هو بالضبط!

نزل عليه جبريل وهو منفرد في جبل قفر، في قرية صغيرة متوارية في وادٍ ضيق، وراء الرمال المحرقة والصحراء المهلكة، في قرية لم تسمع بها رومة، ولم تحس بها القسطنطينية، ولم تبالِها مدائن كسرى، فقال له: انهض، انهض يا أيها الرجل؛ قف وحدك في وجه قريش فاكسر أصنامها، وحطّم آلهتها، ثم أبدل العرب بانقسامهم وحدة، وجهلهم علماً، واجعلهم أساتذة العالم وحمَلَة لواء الحضارة، وادعُ كسرى وقيصر والدنيا كلها إلى الحق والخير والعدل، فإن لم تسمع لك واعتدت وبغت فحاربها، لا لتستعمر بلادها وتملك أعناقها؛ فما كان النبي داعية ظلم، ولا كان الإسلام دين «استعمار»[1]، ولا كان الجهاد حرب عدوان. إنما الجهاد دفاع عن دعوة الحق أمام من بغى لها الأذى، وسدَّ على أهلها الطريق إلى الشعوب، ومنعهم أن يحملوا إليها العلم والحضارة والخير.

حاربْ أهل الأرض إن حاربوك، وجاهِدْهم ولو بقيتَ وحدك: ﴿لا تُكلَّف إلاّ نَفْسَك﴾!

وكانت -يا سادة- مِحَن شِداد، وكانت أهوال، ولكن

---

(١) بالمعنى الذي يراد اليوم، وإن كان ما يسمونه «استعماراً» إنما هو -في الحقيقة- «استخراب»، وهم المخربون المدمرون لا المستعمرون؛ كما يسمون التنصير والتكفير بـ «التبشير».

محمداً احتمل ما لا تحتمله الجبال. إن الواحد منا يخشى -إن قال كلمة حق أو دعا إلى خير- أن يناله إعراض من أمير، أو يسمع كلمة سوء من الناس، أو يُنقَص مرتّبه أو يُمزَّق ثوبه أو يُشتم أو يُضرب، وسيد البشر محمد ﷺ شتمه قومه وآذوه وسخروا منه، وقالوا عنه مجنون، وقالوا ساحر، وقالوا كذّاب. وكانت أم جميل بنت حرب بن أمية تحمل الشوك فتلقيه في طريقه، حتى إذا خرج تعثر به، وهي «حمّالة الحطب». وكان أمية بن خلف يهمزه ويلمزه، وهو «الهُمَزَة اللُّمَزَة». وبلغ بهم الأمر أن جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جَزور (أي أحشاء جمل) فألقاه فوقه وهو ساجد. وسخروا منه؛ فقالوا له: سل ربك أن ينزل ملكاً يدافع عنك فإنك تقوم في الأسواق مثلنا وتلتمس المعاش. وقال آخر: أسقط علينا السماء كِسَفاً كما زعمت. وقال الثالث: أنا أعرف من أين تجيء بهذا القرآن؛ يعلمك إياه رجل في اليمامة يُقال له الرحمن... وهم خلال ذلك يضحكون ويقهقهون، وكلما فتح فمه ليتكلم لقوه بمثل هذه الأقوال.

وقال آخر: يا محمد، لن نؤمن لك حتى تتخذ سلماً تصعد به إلى السماء، فتأتي بالله والملائكة معك لينصروك علينا... فأنزل الله ﷻ حكايةً لأقوالهم هذه: ﴿وقالوا لَنْ نُؤمِنَ لكَ حتّى تَفْجُرَ لنا مِنَ الأرضِ يَنبوعاً، أوْ تكونَ لكَ جَنّةٌ مِن نَخيلٍ وعِنَبٍ فتُفَجِّرَ الأنهارَ خِلالَها تفجيراً، أوْ تُسقِطَ السّماءَ كما زعمْتَ علينا كِسَفاً، أو تأتيَ باللهِ والملائكةِ قبيلاً، أو يكونَ لك بيتٌ من زُخْرُفٍ أو ترقى في السّماءِ، ولن نُؤمِنَ لرُقيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نقرؤه. قُلْ سُبحانَ ربّي! هل كنتُ إلاّ بشراً رَسولاً؟﴾.

وقالوا له: لماذا لا ينزل علينا ملَك؟ فردّ الله عليهم أن لو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل ملَكاً، ولكن في الأرض بشراً فكان رسولهم بشراً مثلهم.

وكان النضر بن الحارث كلما قام الرسول من محله قعد مكانه وحدّثهم من حديث ملوك فارس، وقال: حديثي والله أحسن من حديث محمد. وكانوا كلما جاء يتلو عليهم القرآن شغبوا عليه وصاحوا وقالوا: ﴿لا تَسْمَعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلّكم تغلبون﴾. ولما نزلت عليه آية ﴿عليها تسعةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل ضاحكاً ساخراً: يا معشر قريش، زبانية جهنم التي يخوّفكم بها محمد تسعة عشر[1] فهل يعجز كل مئة منكم عن رجل منهم؟! فنزل قوله تعالى: ﴿وما جعَلْنا أصحابَ النّارِ إلاّ ملائِكةً وما جعَلْنا عِدّتَهُم إلاّ فِتنةً للذين كفروا﴾. وقال أبو جهل: يا معشر قريش، هل تعرفون ما هي شجرة الزقّوم التي يخوّفكم بها محمد؟ هي عجوة يثرب بالزُّبْد! فنزل قوله تعالى: ﴿إنّ شجرةَ الزقّومِ طعامُ الأثيمِ، كالمُهلِ يَغلي في البُطونِ، كغَلْيِ الحميمِ﴾.

ولم يكفِهم ذلك كلّه حتى قاطعوا محمداً وأصحابه، وحبسوهم في الشِّعْبِ أمداً طويلاً لا يبيعونهم ولا يكلّمونهم.

فهل ترونها أثّرتْ هذه الأهوال كلها في عزيمة محمد، أو

---

(1) اتخذ البهائية الكفَرَة رقم (١٩) رمزاً مقدّساً، وجاء المدعو رشاد خليفة يروّج لضلالهم متستّراً بآيات الله يضعها في غير موضعها، وبحساب «الجُمّل» (الذي افتراه اليهود وأخذه منهم أصحاب وحدة الوجود)، حتى زعم أنه عرف به متى تقوم الساعة. ضلالة بيّنة فاحذروها وافتراء واضح فلا تُخدَعوا به.

نقصت من إيمانه بدعوته وحماسته لها؟ لقد عرضوا عليه معها أقوى المغريات: أن يملّكوه عليهم، وأن يعطوه الأموال، وأن يقدّموا إليه أجمل النساء ليتزوج منهن بمن شاء، فكان موقفه بعد هذه المغريات كلها، وهذه المصائب كلها، أن قال لعمه أبي طالب: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لأترك هذا الأمر ما تركته».

فهل تعرفون في تاريخ الجنس البشري موقفاً آخر كهذا الموقف؟

واستمرّ هذا كله وامتدّ، لا يوماً ولا يومين، ولا أسبوعاً ولا شهراً، امتدّ سنوات طِوالاً. ولو أن رجلاً غير محمد لقال: "حسبي! لقد عملت ما عليّ، وبذلت الجهد، فإذا النجاح مستحيل. وقد آنَ لي أن أنسحب وأقعد في بيتي".

ولكن الانسحاب لا مكان له في منهج محمد ﷺ، وكلمة المستحيل لا وجود لها في معجمه، وإذا لم ينجح في مكة فلينتقل إلى غيرها؛ فإن الدعوة للدنيا كلها، وللعصور كلها. وانتقل إلى الطائف. والنقلة إلى الطائف عَسِرة، والطريق إليها طويل، ولكن محمداً ﷺ لا يصرفه عن الغاية عسر المسلك ولا طول الطريق.

وبلغ الطائف، وقصد سادة ثقيف الثلاثة لعلّه يلقى عندهم ما لم يلقَ عند زعماء مكة، وبدأ يعرض عليهم دعوته، فإذا أوّلهم يقول له: "أنا أمرُط (أي أنتف وأمزّق) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك". وقال الثاني: "أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟". وقال الثالث: "أنا لا أكلمك أبداً. لئن كنت رسولاً من الله كما تقول،

لأنت أعظم من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك!".

قال: «أمّا إن رفضتم ما جئتُ به فاكتموه عني». لجأ إلى نبلهم بعد أن يئس من عقلهم، فما كانوا نبلاء، وأغروا به السفهاء والعبيد يلحقونه ويدفعونه ويسبّونه ويصيحون به، حتى أخرجوه إلى طرف البلدة.

وهنا، وقد بلغ الهول هذا المبلغ، دعا رسول الله ﷺ دعاء، ما تلوتُه مرةً إلاّ فاضت عيناي، وما أحسب أحداً يسمعه ويفهمه يملك قلبه أن يسيل من الرقة دمعاً من عينيه. قال:

«اللهمّ إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس. يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعَفين، وأنت ربي. إلى من تكلني؟

إلى بعيدٍ يتجهّمني؟ أم إلى عدوٍّ ملّكتَه أمري؟ إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أُبالي، ولكنّ عافيتَك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبَك، أو يَحِلّ عليّ سخطُك. لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك».

وهنا موقف عجب من العجب؛ الرسول في هذه الحال من الشدّة، وفي هذا الموقف الذي يُقنط أجلد الأبطال، رأى بادرة قبول للدعوة عند عبد ضعيف يقال له عدّاس، فلم يمنعه كل ما لقي من أن يبلّغه دعوة الله، وينصرف إليه، وينسى ألمه وتعبه،

حتى أسلم.

هذا موقف صغير بالنسبة للرسول، ولكنه عظيم عظيم بالنسبة إلى دعاة البشر في كل تواريخهم. ولا يستطيع باحثٌ أن يلقى في الإخلاص للدعوة ونسيان الذات في سبيلها، موقفاً مثله لرجل آخر غير محمد، صلّى اللّه وسلم على محمد.

* * *

ها هو ذا قد جرب الدعوة في مكة، وفي الطائف، فلم ينجح. وصبر ثلاث عشرة سنة؛ أربعة آلاف وستمئة وثمانين يوماً، كل يوم من طوله وشدّته سنة، فهل بعد هذا مجال للصبر؟

ألا يُعذَر لو ألقى السلاح بعد هذا كله وانسحب؟

ولكن لا!

إن قريشاً بجهلها وحماقتها تريد أن تصُدّ النور عن الأرض كلها؛ تريد أن تمنع الخير عن العصور القادمة التي ستتلقى هذا النور؛ تريد أن تمنع قيام بغداد والقاهرة، وجامع قرطبة والمدرسة النظامية؛ تريد أن تطمس الحضارة التي جاء يقيمها محمد ﷺ، فتمتد من أقصى الغرب إلى آخر جاوة، فماذا يصنع محمد؟

يهاجر ليفتح للدعوة باباً آخر تطل منه على الدنيا.

وكان هذا الباب هو يثرب التي صارت به «المدينة المنورة».

وسيَّرَ أصحابه إليها، وتأخر هو. لم يترك مكة دار الفزع إلى

يثرب دار الأمان، حتى لم يبقَ فيها أحدٌ من المسلمين.

لم يترك إلاّ علياً، وهو منه، وهو كولده. نام في فراشه ليؤدي الودائع التي كانت عنده لقريش. ولقد قلت من قبل إني قرأت هذا الخبر مئة مرة فما انتبهت إلى ما فيه إلاّ تلك المرة، حين فكرت في قريش كيف تودع محمداً أموالَها وذخائرَها رغم كل ما كان بينه وبينها، وهل يودع حزبٌ أوراقَه ووثائقَه عند فرد من حزب آخر معادٍ له؟ لولا أن محمداً كان في أمانته وفي قوّة خلقه أمةً وحدَه، وأنه كان من طراز ليس له في البشر ثان.

* * *

وهاجر مختفياً مع صفيّه وخليله شيخ المسلمين أبي بكر. لم يختَفِ من ضعف ولا جبن، ولكنه كان كالقائد المسافر ليدير المعركة الكبرى، فهل يُظهر نفسه ويقف على الطريق ليحارب فصيلة لحقت به، فيظفر عليها ويعطل المعركة الكبرى؟

إنها تنتظر محمداً معاركُ أكبر؛ تنتظره بدر، والفتح، وهوازن، والقادسية، واليرموك، وجبل طارق، ومعارك الفتح الإسلامي التي امتدّت من بعد. سلسلة مظفرة خيّرة، نثرت شهداء الحق في كل أرض، ونصبت راية العدل على كل جبل، وأضاءت بالإسلام القلوب والبلاد في كل مكان. وتنتظره المعركة مع الجهل والفقر والظلم والفسوق، وسائر الأوضار الخلقية التي جاء ليطهّر المجتمع البشري من آثارها.

ودخل «المدينة» لا يرفرف على رأسه علم، ولا يمشي وراءه

موكب، ولا يُقرع له طبل، ولكن ترفرف على رأسه راية القرآن، وتمشي وراءه العصور القوادم، ويخفق له قلب التاريخ ما بقي في الدنيا تاريخ.

وخُتِمتْ في تاريخ الدعوة صفحة وفُتحت صفحة أخرى، ومضى عهد الضعف والأذى وبدأ عهد القوة والظفر، وكانت الهجرة هي الحد الفاصل بين العهدين.

* * *

فيا أيها المسلمون.

اذكروا -كلّما احتفلتم بالهجرة- أنها كانت هي الفصل الأول في كتاب المكارم والمفاخر والأمجاد، وأن على المسلم كلما ضاقت به سبل النجاح في حي أو بلد أو قطر، أن يهاجر إلى حيث الظفر والعزّة والحرية.

وحيث يكون ذلك كله، وحيث تسود العدالة ويعم النور، وحيث ينادي المنادي: «لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله»، فذلك وطن المسلم!

* * *

حقيقة الهجرة *

أعددت لهذا المقام كلاماً غير ما تسمعون الآن، ولكن صديقاً قال لي أمس (في مجلس جمع نفراً من الناس لم يجمعهم فكر ولم يؤلف بينهم مذهب): لقد كاد ينقضي شهر الهجرة وأنت لا تتحدث في الهجرة، فهل بلغ بنا التنكّر لتاريخنا حتى صار مثلك يستحيي من نشر مآثره وإذاعة مفاخره؟

قلت: أعوذ بالله؛ ما هذا الذي تقول؟

قال: فلِمَ -إذن- لا تتكلم في الهجرة؟

قلت: لأني أتكلم فيها دأباً من أكثر من ثلاثين سنة، ما مرّت سنة منها إلا كتبت فيها أو خطبت، حتى لم يبقَ عندي جديد في الموضوع، ولا أحب الكلام المعاد.

فقال رجل من الحاضرين: دعونا من الهجرة وخبر الهجرة، نحن في عصر الذرة والقمر الصناعي، نقطع نصف محيط الأرض

---

* وجدت هذه المقالة بخط جدي (رحمه الله) بين أوراقه وعليها تاريخ كتابتها: ١٩٥٨/٨/٨، ويبدو أنها قد أذيعت من إذاعة دمشق في تلك السنة، ولا أحسبها نُشرت في أي مجلة أو جريدة (مجاهد).

في يومين، ثم نشتغل بسَفرة من مكة إلى المدينة؟

فضحكت وقلت له: وما للقمر الصناعي والكلام في الهجرة، وما العلاقة بينهما؟ وهل ينبغي على كل أمة أن تنسى تاريخها وتطمس سفر أمجادها لأن البشر حطموا الذرة؟ أي منطق هذا؟ وهل تظن الهجرة سفرة عادية بين قريتين في الحجاز؟ إن مئة ألف حاج يسافرون كل سنة من مكة إلى المدينة، فلِمَ لا يكون لسفرة واحد منهم تاريخ كتاريخ الهجرة؟

قال: فما الهجرة إذن؟

قلت: إنها مرحلة من رحلة طويلة، مشاها محمد ﷺ يحمل العبء الثقيل الذي ألقاه الله على عاتقه، يحمل المهمة الكبرى التي كُلِّف بإنجازها؛ هي أن ينهض وحده ليبدل عقائد البشر، وأوضاع المجتمع، وقوانين الحكم. ألا تعرف ذلك، أو لعلك لم تقرأ سيرة محمد ﷺ ؟

فسكت. قلت: لا، خبّرني أرجوك؛ هل قرأت السيرة؟

قال: تريد الصحيح؟ لا.

قلت: دعني -إذن- أوضّح لك عمل محمد بمثال: لقد كانت الدنيا تتقاسمها -يومئذ- الدولتان الكبريان؛ فارس والروم، كما تتقاسم الدنيا اليوم أميركا وروسيا. وكانت مكة قرية صغيرة تعيش على حاشية التاريخ، تتوارى وراء الرمال. فتصور لو أن رجلاً قام اليوم في قرية متوارية وراء الصحراء، يدعو إلى عقيدة جديدة يترك لها الناس عقائدهم، وأسلوب جديد للعيش يدع له

الناس أساليبهم، وقوانين جديدة للحكم يستبدل الناس بها قوانينهم، وأعلن أنه سيعمل حتى يبلّغ دعوته الدنيا كلها. ماذا تقول فيه؟ وماذا تقول إذا سمعت أن قومه عرضوا عليه أجمل النساء وأعلى المناصب وأعظم الأموال على أن يرجع عن دعوته فأبى، فنالوه بأشدّ الأذى وأكبر النكال، وآذَوه في نفسه وجسمه وأهله ليرجع عن دعوته فأبى؟ وأنه لم يلقَ نجاحاً يُذكر ولكنه لم ييأس ولم يملّ، واستمر يدعو لا شهراً ولا شهرين، ولا سنة ولا سنتين، بل ثلاث عشرة سنة؟ وأنه لما لم يجد الاستجابة في بلده تركها وهاجر إلى غيرها، لم يمنعه حب الوطن وروابط العيش فيه من الخروج منه؟ وماذا تقول إذا سمعت أن هذا الرجل قد كوّن له حزباً وجمع جماعة، وأن هذه الجماعة نازلت -على قلتها- حكومة بلده وغلبتها، ثم سيطرت عليها، ثم امتدت الدعوة تحميها هذه الفئة الجديدة إلى البلاد المجاورة، ثم لم يمرّ نصف قرن حتى ملكت ما كانت تملك الدولتان الكبريان؟ هل في التاريخ، هل في القصص والروايات، هل في الواقع أو في الخيال ما هو أعجب من هذه القصة؟

وليس الفتح الإسلامي كفتوح القوّاد المحاربين، من أمثال الإسكندر وهاني بعل وجنكيز وتيمور ونابليون، يقوم على حد السيف، فإن زال زال. ولكنه فتح مفرد في بابه، فتح لا يدع في البلاد المفتوحة غالباً ولا مغلوباً، وإنما يفتح القلوب ثم يصبّ فيها النظام الجديد، فإذا أُشربَتْه صارت أغيرَ عليه من أصحابه الأولين.

فليست الهجرة -يا أخي- سفراً من بلد إلى بلد، ففي كل يوم يسافر مسافرون سفرات أبعد مدى وأشد خطراً. ولكنها درس

خالد لكل مصلح وكل داعية وكل صاحب مبدأ يصدر عنه وغاية يسعى إليها؛ درس في التضحية بأوسع معانيها، التضحية بالوطن والآل والمصالح واللذائذ في سبيل الله.

إن الله قرن الموت بالخروج من الديار، ذلك لأن فراق الوطن موت أصغر. إن الذي ينتقل من بلده إلى بلد جديد كالنبات حينما تقلعه من منبته فتقطع جذوره لتزرعه في أرض أخرى، ألا تراه يذبل ويصوّح[1] ويوشك أن يموت؟ كذلك الإنسان.

الإنسان يعيش بذكرياته، ففي كل شيء يراه وعند كل شخص يعرفه ذكرى من ذكرياته، وقطعة من حياته. إن في وجه الصديق، وعطفة الدرب، وسفح الجبل، وحافة النهر، وفي كل مشهد من مشاهد بلده شيئاً منه، فإن فارقها إلى بلد جديد أحسّ كأنه يعيش منقطعاً عن الدنيا، كالنبات بلا جذور.

فإذا أردت أن تتصور صعوبة الهجرة فانظر: هل تستطيع أن تترك دارك ومصالحك وأهلك وبلدك، وتمشي إلى بلد لا تعرفه وقوم لا تألفه[2]، في سبيل عقيدة أو مبدأ؟ إن ذلك من أصعب الصعب، إنه موت أصغر.

والرسول ﷺ بشر، بشر في جسمه وروحه وعواطفه. ولقد وقف ينظر إلى مكة يوم الهجرة، ولعله يذكر فيها ماضيات أيامه، يذكر ما خلّف فيها من ذكرى ومن عاطفة، وقال: «والله إنك

---

(1) صوّحَ النبتُ: يبس حتى تشقّق (مجاهد).

(2) في لسان العرب: حكى ثعلب أن العرب تقول: يا أيها القوم كفّوا عنا وكفَّ عنا (أي بالجمع والإفراد)، على اللفظ وعلى المعنى. (مجاهد).

لأحبّ بلاد الله إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت». وكان يذكرها -أبداً- وهو في المدينة ويحنّ إليها.

فليست الهجرة سفرة بين بلدين، ولكنها فاصل في تاريخ الدعوة بين عهدين؛ بين عهد الضعف وعهد القوة. لقد كانت بداية النصر.

فماذا صنع محمد ﷺ، وكيف انتصر؟ إنه فرغ من أمر بطنه؛ فما يفكر أجاع في سبيل الدعوة أم شبع، وفرغ من أمر جلده فما يبالي ألبس أكيسة الصوف أم ارتدى برود اليمن، وفرغ من أمر الجاه فما يخيفه أن يُلقى في طريقه الشوك ولا يزدهيه أن يُفرش بالورود. لم يفكر في أن يستغلّ دعوته لينال زعامة، ولو أرادها لكانت طوع يديه، أو ليجمع مالاً، أو ليقتني ضيعة، أو ليمدّ يده إلى أتباعه ليقبّلوها ويملؤوها ذهباً فيعيش معظماً مبجَّلاً مرفَّهاً مخدوماً. لا؛ ولكن جاهد وناضل وحمل الأذى، ولم يميز نفسه عن أصغر واحد من أتباعه في مطْعَم ولا ملبَس ولا متعة ولا جاه.

فهل سمعتم -يا أيها الزعماء- ماذا صنع محمد؟

ولم يقفز إلى النصر بمعجزة غيبية ولا بأعجوبة، ولو أراد الله لقفز بأعجوبة، ولكنه سلك الطريق ليكون درساً لكل مصلح يسلكه من بعده. فضمّ إليه رجلاً فصارا اثنين، ثم صار الاثنان ثلاثة، ثم صاروا أربعين، ثم صاروا... ثم صاروا أربعمئة مليون[1]. وكان يدعو إلى الله بلطف وظرف وفهم وعلم، ويخاطب كلاً على قدر عقله، ويصدق قوله بفعله.

---

[1] أي وقت كتابة هذه الكلمة سنة ١٩٥٨ (مجاهد).

فهل سمعتم -يا أيها المشايخ- كيف كان يدعو محمد؟

مشى محمد من الغار إلى مكة، ثم مشى من مكة إلى المدينة، ثم مشى أتباعه يحملون العدل والعلم والإنسانية إلى الشام، ومشوا إلى العراق، ومشوا إلى مصر، وبلغوا أقصى المغرب وأقصى المشرق، ونصبوا راية الإسلام على روابي الصين وعلى بطاح فرنسا، ومشوا شمالاً ومشوا جنوباً حتى ملؤوا الأرض رجالاً، وملؤوا الأرض عدلاً ونوراً، وملؤوا الأرض فضائل وأمجاداً. وكانوا القادة، وكانوا السادة، وكانوا قلب الدنيا الذي يشعر وعقلها الذي يفكر، وكانوا خلاصة البشر.

وكان أول هذا الطريق الطويل: الهجرة من مكة إلى المدينة.

* * *

فيا أيها السامعون، أحنوا الرؤوس لذكرى الرجل الذي دخل المدينة لا يحفّ به موكب، ولا يحرسه جند، ولا تلوح فوق رأسه راية، ولا يزين صدره وسام، ولا يلمع على هامته تاج؛ ولكن تحفّ به الملائكة، ويمشي في ركابه التاريخ، وتنحني أمامه العصور، ويلمع على جبينه نور النبوة، ويحرسه الله.

وبعد، فإنه ما بُدئ تاريخنا بهذه الهجرة إلا لتكون كل مرحلة في تاريخنا هجرة؛ هجرة من بلد إلى بلد خير منه، ومن حال إلى حال أحسن منها. هجرة أبداً في مراقي الفلاح، وفي مدارج العُلا، وفي سلالم المجد.

* * *

معنى الهجرة

نشرت سنة ١٩٣٧

مشى عبد الله حَذِراً يتلفّت إلى الوراء خشيةَ أن يراه بعض سفهاء قريش فيقطع عليه سبيله، فلم يرَ أحداً. وكانت طرق مكة خالية لأن الناس قد أمّوا الحرم ليجلسوا في مجالسهم كعادتهم في كل مساء، فاطمأن وسار قدماً، حتى إذا خرج من مكة وجاوز الحجون، واتسع الوادي أمامه وانفرج، صعد الجبل يأخذ طريقه إلى الغار ونظر؛ فَراعَه منظر الغروب على هذه السفوح والذّرى، وأحسّ بجلال الموقف، وأخذ عليه نفسَه هذا الصمتُ العميق وهذه الصفرة التي تعمّ كل شيء؛ فنسي غايته ووقف ينظر.

رأى مكة تلوح أبنيتُها من فُرجة الوادي وتبدو الكعبة قائمةً في وسطها، والأصنام التي تحفّ بها تظهر على البعد كأنها لطخ أسود. فذهب به الفكر سريعاً إلى ذينك الرجلين اللذين تركهما صباحاً في الغار وذهب يتحسّس لهما خبر قريش ويعلم علمها.

ذكر النبي ﷺ وأباه الصديق[1] فخاف أن يكون قد أصابهما

---

[1] انظر الخبر في كتابي «أبو بكر الصديق» ص١٠٤.

شر، فأغمض عينيه عن هذه المشاهد، ومضى في طريقه وهو يتعجّب من قريش حين زهدت في المجد والظفر، وآثرت هذه القرية الجاثمة بين هذين الجبلين -كأنما هي مخبوءة في صندوق من الصخر- على السهول والجنان والمدائن التي أراد النبي ﷺ أن يقودها إليها، وانصرفت عن الراية التي دفعها إليها محمد لتسير بها إلى أرض النخيل والأعناب فتركزها في دمشق والإسكندرية وعلى إيوان كسرى، وفضلت عليها رايتها التي لم تتعود الخفق في سماء المعارك الكبرى، ولا أَلِفَتْ الاهتزاز على أسوار المدن المفتوحة. لقد عرض محمد على قريش أن تعطيه هذه الأصنام ليكسرها ويعطيها بدلاً منها ملك كسرى وقيصر، ويعطيها العقل المبدع والقانون العادل والعبقرية والخلود، فأبت وعكفت على أصنامها وتماثيلها. فما أعجب قريش!

ونظر إلى مكة مرة ثانية، فإذا الظلام قد لفها بردائه، ثم ابتلعها ولم يعد يبدو منها إلا بصيص من النور. فخالط نفسَه سرورٌ مبهم، وشعر بزوال هذا الخطر القرشي، واستروح رائحة الظفر فامتلأ قلبه أملاً، وجعل يجيل بصره في الأفق الواسع فيُخيّل إليه أنه يرى راية محمد ترقص على هام القصور البُلق[1] في الشام، والصروح البيض في المدائن... فمضى يتسلق الصخور إلى الغار وهو يقفز قفزاً، يظن من شدة النشاط وقوة الأمل أنه سيطير!

* * *

---

[1] الأبلق هو ما كان فيه سواد وبياض، وأكثر ما يطلق على الخيل، ويقال للأنثى: بلقاء، والجمع بُلْق (مجاهد).

وكانت الجزيرة -يومئذ- تتمخض بالموجة الكبرى.

ولطالما ماجت هذه البرية القاحلة التي تلتهب في أيام الصيف التهاباً، وهذه الرمال التي تتسلسل إلى غيرما حد، ففاضت على أرض العراق والشام وكانت منبع الحياة. لقد كان ذلك والتاريخ جنين في بطن العقل البشري لم يولد بعد، وكان وهو طفل لا يعي، وكان والتاريخ صبي يميز ويدرك، فرآه فسجله في دفتره.

رأى وادي النيل وحوض الرافدين يمشيان إلى الخراب؛ قد نضبت فيهما الحياة، فما راعه إلا موجة تنشأ من الجزيرة، من وسط الرمال، فتقذف إلى مصر بـ «مينا» ليكون أول فرعون فيها، وتلقي ببني كلدة إلى العراق، فإذا هؤلاء الوافدون من أعماق القفر يفتحون حقائب أدمغتهم فيخرجون منها الحضارة الأولى، حضارة البابليين القدماء، قبل الميلاد بستة وثلاثين قرناً.

ولقد ماجت الجزيرة موجات أخرى، ولكنها اليوم تتمخض بالموجة الكبرى!

* * *

فكر عبد الله بهذا وهو يتسلق الصخور إلى الغار، ثم استسلم إلى أفكاره وأطلق لها العنان، وشمل العالم كله بنظرة واحدة، فرآه ينتظر أمة جديدة طاهرة لم تدنسها تلك الحضارة الزائفة، حرة لم تذلّها تلك الأنظمة الجائرة، أبيّة لم تألف طغيان الأكاسرة وجبروت الأباطرة، لتختم صفحة الماضي السوداء وتفتح في التاريخ صفحة بيضاء جديدة.

إن البناء القديم قد تهدّم وتخرّب ولم يعد صالحاً، ولا بد من أمة قوية ماهرة؛ تهدم هذه الأطلال البالية ثم تنشئ بناء جديداً.

إن في العالم أمماً تشقى ليسعد أفراد، وشعوباً تضنى ليحيا رجال. إن هذه حال يجب أن يوضع لها حد، فمن هو الذي ينقذ العقل البشري من قيود الجهل والاستبداد؟ من هو الذي يمحو هذه الأرستقراطية العاتية السخيفة؟ من يهدم هذه الهياكل البالية ليقيم على أطلالها صرح الحضارة؟ من الذي يمهد السبيل للمستقبل المنتظَر، لعصر العلم والفضيلة، لعصر الحرية والعدالة والمساواة؟ لا أحد!

كل شيء هادئ في العالم.

إن القافلة تمشي ببطء في عرض البادية؛ قد خرس الحادي ومات الدليل؛ إنها تمشي نحو الموت.

إن السفينة تتخبط في لجة اليم؛ تميل وتضطرب، لم يعد لها أمل؛ قد هبّت العاصفة وطغى الموج وغرق الربان!

يا من يهدي القافلة الضالّة... يا من يخلّص السفينة الحَيْرى... يا من ينصر الشعوب المظلومة... يا من يحيي العقل المُهان... يا من ينقذ الفضيلة المعذبة!!

ليس من مجيب؛ كل شيء هادئ في العالم!

* * *

بلغ السيل الزبى، وعمّ اليأس، واشتدّت المصيبة، فتلفّتَ

الناسُ فلم يجدوا أمامهم إلا البِيَع والأديِرة، فلجؤوا إليها فسمعوا فيها البشارة: "يا أيها الدنيا، استبشري؛ فقد نشأت اليوم الموجة الخيّرة التى ستغمر العالم وتغسله من أدران الماضي... لقد نشأت من غارٍ عالٍ منقطع في قمة جبل ومشت تقطع الرمال نحو أرض المدنيات... لقد ابتدأ اليوم أكبر حادث تاريخي: إن ركاب النبي المنتظَر قد تحرك من مكة يسير إلى نصرة الإنسانية، إلى حماية العقل، إلى إنقاذ الفضيلة، إلى إنشاء مجتمع الحرية والعدالة والمساواة".

فخفقت القلوب في كل مكان لذكر النبي المصلح، وعاشت بحبه، وسألت: إلى أين بلغ؟ إلى أين بلغ؟

– لقد بلغ الغار، فوقف فيه يودع هذه الجماعة السخيفة، التي جاءها أعظم رجل بأعظم مبدأ، فلم تفهم منه شيئاً. وحسبت أنها تستطيع القضاء عليه، فهي تريد أن تردّ النبي فتقتله أو تسجنه، فهي تبعث رسلها يفتّشون عنه في أنحاء البادية وشعاب الجبال ومنعرجات الأودية، وينفضونها نفضاً، ولكنهم يعمون عن هذا الغار العالي المكشوف الذي يطلّ منه سيد العالم.

– أهؤلاء يحرمرن البشرية من العصر الذهبي المرتقَب ويقضون على الأمل الوحيد الذي تعيش به ملايين الخلائق؟ يا للمجرمين! يا للجاهلين المغترّين!

* * *

وانتبه عبد الله، فإذا هو قد تأخر وضلّ الطريق، فصحا من ذهوله، وتسلق الصخر مسرعاً نحو الغار. لقد فهم معنى الهجرة

التي لم تفهم قريش معناها وحسبتها سفراً من مكة إلى المدينة. لقد علم أنها انتقال من الماضي الأسود الكئيب إلى المستقبل المشرق المنير... فليقفز إلى الغار قفزاً.

* * *

وبعد، فيا مَن ينعمون بحضارة القرن العشرين[1]، يا من يعرفون قيمة الفكر البشري ويستمتعون بثمراته، يا من يقدّرون العدالة والحرية والمساواة...

لا تنسوا أبداً أن المنار الذي اهتدت به القافلة الضالّة والسفينة الحَيْرى إنما خرج من ذلك الغار. إن العالم قد سار نحو الكمال يوم سار محمد ﷺ نحو الغار.

إنه لولا الهجرة، ولولا الفتح الاسلامي، ما خرج العالم من الهوة التي دفعته إليها أرستقراطية السادة الأشراف وجبروت الملوك المستبدين... ولا كانت حضارة القرن العشرين!

هذا هو معنى الهجرة التي نحتفل اليوم بذكراها، فحق على كل متمدن أن يشاركنا في هذا الاحتفال.

* * *

---

[1] هي كذلك في الأصل، فتركتها كما هي. على أن جدي صار يصححها أخيراً فيقول إن قولنا «القرن العشرون» خطأ صوابه «قرن العشرين» (مجاهد).

من معجزات الهجرة

نشرت سنة ١٩٣٥

قال: هل لك يا سُراقة في مئة من الإبل؟

قال سُراقة: ما أحوجني إلى عشرين! فكيف السبيل إلى مئة؟

قال: تردّ على قريشٍ صاحبَها، فقد خرج من مكة -حين مكرت به قريش وأجمعت على قتله- مهاجراً إلى المدينة، فبَثّتْ قريشٌ عيونها في سُبُل مكة وشِعابها، وبعثت رسلها فنفضت الصحراء نفضاً، فما وقعوا له على أثر. فعادوا إلى قريش بالإياس منه، فأذّنت قريش في العرب: أن من ردّ علينا محمداً فله مئة من الإبل. وقد رأيتُ رَكَبة ثلاثة مروا عليّ آنفاً، وإني لأراهم طُلبة قريش... فهل لك أن نلحق بهم فنردّهم إلى مكة ونأخذ مئة الناقة فنقتسمها بيننا؟

فرقص قلب سراقة فرحاً ولعب به الطمع. وكان سراقة بن مالك الجعشمي رجلاً متعفرتاً متشيطناً، فعقد النية على أن يستأثر وحده بالغنيمة حتى تكون خالصة له، فقال لصاحبه: ما هؤلاء مَن تريد؛ هؤلاء بنو فلان ينشدون ضالّة لهم.

فصدق الرجل وانصرف. وذهب سراقة فجلس في نَدِيّ[١] قومه كما كان يجلس كل عشية، فما اطمأنّ به مجلس، وما وعى من أحاديث القوم شيئاً، وإنما كان يُخيَّل إليه أنه يرى قطاراً طويلاً من الإبل يمرّ أمامه ويدور من حوله، فيخفق لمرآه قلبه، وتتحلّب أشداقه[٢]... ثم طمى به الطمع، فبرح النادي إلى بيته، يلوص[٣] بعينه آفاق المستقبل ويقلّب أوجه الممكن، ويفكر في مئة الناقة: أيملكها حتى تكون طوع أمره؛ يصرّفها كما يشاء فتلد، وتتكاثر فينحر منها، ويطعم الجائع، ويُقري الضيف، ويرفد الوافد، فيسير ذكره في العرب وتنتجعه[٤] الشعراء وتمشي بمدائحه الركبان؟ أم هو لا ينالها، ولا يفيد من سفره إلا لذعَ الشمس و برحَ العطش وطول التعب؟

وامتدّ به التفكير حتى ما يكاد يخرج منه، ولا يكاد يستقر على الرأي لحظة حتى ينتقل إلى غيره: لِمَ لا أذهب؟ إني سأجدهم فأردهم على قريش... ولكن ألم تعجز رُسُل قريش عن أن تهتدي إليهم؟ فكيف أجدهم أنا؟... بل سأجدهم؛ إني سالكٌ كل طريق تؤدي إلى المدينة... ولكن يا للسخف! ألم تسلك رسل قريش هذه الطرق كلها؟

ولما أضناه التردد أزمع أن يستفتي الحظ ويهتدي بالمصافة؛

---

(١) النديُّ والنادي والمنتدى بمعنىً، وهو مجلس القوم ومجتمَعُهم (مجاهد).

(٢) تحلّب المائع: سال. يقال: تحلب العَرَقُ، وتحلّبت عينه، وتحلب فمه. والأشداق (والشّدوق) جمع الشّدْق، وهو جانب الفم مما تحت الخد (مجاهد).

(٣) لاصَ الشيءَ بعينه يلوصُه: نظر إليه من فُرجة (أي من شِقٍ ونحوه) (مجاهد).

(٤) يقال: انتَجَع فلانٌ فلاناً: قصده يطلب معروفه (مجاهد).

فأخرج أزلامه فاستقسم بها، وحاول أن يشتفّ الغيب من خلالها: "إن خرج الزلم الذي أكره لم تكن النياق لي، وإن خرج الذي أُحب كانت لي. إن الحكم للأزلام"!

وضرب بيده فخرج الزلم الذي يكره، فتألم واشتدّ ذلك عليه، لأنه إنما عمد إلى الأزلام ليستمدّ منها العزم على الذهاب لا الرغبة في القعود.

ثم قال: "إنها أول مرة، وهي للشيطان! وإني ضارب الثانية؛ إن الثانية لآلهتنا". وضرب الثانية فخرج الزلم الذي يكره. فقال لنفسه: "ما لي؟ وهل يقنع امرؤ بمرتين؟ إن المعوّل على الثالثة". وضرب الثالثة فخرج الزلم الذي يكره... فتصبب على جبينه العرق البارد، فألقى الأزلام حنقاً وأمر غلامه أن يسرج فرسه ويقوده إلى بطن الوادي!

وتريّث سراقة، حتى إذا تصرّم الليل أَسحَرَ سالكاً طريق المدينة، فسار فيه إلى الصباح فلم يقع من القوم على أثر. فعاد أدراجه يتبع طريق الساحل فلا يلقى فيه أحداً، حتى زالت الشمس وحميت الظهيرة وتسعّرت الأرض، وأحرق جوفَه العطش، وكان ينهزه الطمع فيعدو فرسه عدواً شديداً، حتى يرى الآكام هي التي تسير عن يمينه وشماله، يأخذ بعضها بسفوح بعض! ثم يدركه القنوط فيدع الفرس يمشي متباطئاً متخاذلاً...

حتى إذا بلغ منه التعب والعطش والجوع واليأس نظر، فإذا محمد وصاحبه. فصُبَّت القوة في عضلاته، وعادت إليه الحمية والنشاط، فصاح في الفرس فانطلق نحوهما كالسهم المرسل!

قال أبو بكر ﷺ: ... فقلت: "هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله"، وبكيت. فقال: "ما يبكيك؟". قلت: "ما والله على نفسي أبكي، ولكن أبكي عليك". فدعا عليه رسول الله ﷺ وقال: "اللهمّ اكفناه بما شئت". فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها...

فلما رأى سراقة ما رأى، وثب عن الفرس وقد طار الخوف بلبه وأبرأه الفزع من داء الطمع، وصاح: يا محمد! قد علمتُ أن هذا عملك، فادعُ اللّه أن ينجيني مما أنا فيه، فوالله لأعمّينّ على مَن ورائي من الطلب.

فدعا له رسول الله ﷺ فأنقذه الله... وكلمه فكان من قوله له: كيف بك -يا سراقة- إذا لبستَ سوارَي كسرى؟

* * *

ورجع سراقة، وقد اجتمعت عليه منذ اليوم المتناقضات من الأفكار والعواطف، وهاج نفسَه الطمعُ والخوف، والأمل واليأس، فجعل يقهقه في هذه البادية ويصرخ كمن به جِنّة. ولِمَ لا يُجنّ؟ وقدكان يأمُل أن ينال الغنى ففاته ما كان يأمل، وقد فَتَحَتْ فاها لتبلعه الأرضُ فنجا، ولم يصدر -بعد هذا كله- إلا بوعدٍ دونَه خرطُ القتاد، وخرق النار، وخوض البحار.

- ماذا؟ أيعدني محمد سوارَي كسرى، كسرى شاهنشاه ملك الملوك؟!... وهو يقطع الصحراء هارباً من قومه، مختفياً في غار ليس معه إلا رجل واحد. أيبتلع هذا الغار ملك كسرى وجبروته وجلاله؟ أتنتصر هذه الصحراء على ملك كسرى وجنانه وأنهاره؟

أيغلب هذان المهاجران كسرى على خزائنه وجنوده وبلاده؟ ولو أن العرب اجتمعت كلها ورمت عن قوس واحدة ما نالت من كسرى منالاً. على أنها لن تجتمع العرب قط؛ ومَن ذا الذي يجمع مضر بن نزار وقحطان... وبكراً وتغلب... وعبساً وذبيان... وأين يذهب ما بينها من دماء؟!

أما إن قريشاً كانت أدرى بصاحبها حين قالت عنه ما قالت؛ فما أراه يعجبه أن ينجو من قريش ويفلت من أذاها حتى يكون له ملك كسرى! إنه والله ما يريد إلا أن يتركنا -نحن أيضاً- مجانين!

وانطلق يقهقه ويصرخ: "ويحٌ لك يا سراقة! ستلبس سوارَي كسرى؛ كسرى شاهنشاه ملك الملوك"... والفرس ينفر من صراخه فيطير على وجهه، حتى اختفى وراء الآكام.

* * *

ومرّت السنون.

وكان يومٌ صائف متوقد، ففرّ سراقة من حره إلى حائط له، فما استقر فيه حتى سمع منادياً ينادي: يا سراقة بن مالك الجعشُمي، يا سراقة...

فصاح أن لبيك، وانطلق يؤُمّ الصوت، فإذا رسول عمر يدعوه أن أَجِبْ أمير المؤمنين، وإذا الشمس بين يدي عمر تأخذ الأبصار ببريقها ولمعانها، وإذا بين يديه تاج كسرى ومِنطَقَته.

قال عمر: هلمّ يا سراقة. أتذْكُرُ خبر الغار وسواري كسرى

شاهنشاه ملك الملوك؟

قال: نعم.

قال: قد أذهب الله بالإسلام مُلك كسرى؛ فلا كسرى بعد اليوم... هاتِ يديك.

فألبسه السوارين وقال: ارفعهما فقل: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، وألبسهما سراقة بن مالك، أعرابياً من بني مُدلج.[1]

* * *

يا سراقة، لقد انتصر المهاجران على كسرى وقيصر، وكان لهما ملك الأرض!

يا سراقة، لقد أضاء النور الذي انبثق من بطن مكة الدنيا جميعاً!

يا سراقة، لقد ظفر الغار بالعراق والشام، وغلبت الصحراء العالم!

يا سراقة، لقدكان ملك كسرى وقيصر كبيراً قوياً، ولكن الله مع الذين آمنوا، والله أقوى... والله أكبر!

* * *

---

[1] انظر النص التاريخي لحديث سراقة في كتابي أبو بكر الصديق، ص ٨٣.

معجزة الهجرة

نشرت سنة ١٩٣٧. وأصل المقالة خطاب أُلقي في المسجد العمري الكبير في بيروت في الاحتفال بذكرى الهجرة.

لقد قال الإخوان ما كنت أحب أن أقول ولم يدَعوا لي بقية. لقد سدّوا عليّ الطريق وأخذوا المسالك، وذهبوا بالذي أعددته وهيأته. فأنا أعتذر إليكم، ولا أجد بداً من أن أدعَ هذا الاجتماع المبارك وأذهب... أذهب في رحلة بعيدة، بعيدة جداً، أجوس فيها خلال الماضي وأتغلغل في مسارب العصور وأخوض لجة الزمان. لقد أوغلت في رحلتي وابتعدت؛ فأنا الآن في أوائل القرن السادس لمولد عيسى بن مريم، عبد الله رسوله.

* * *

انقطع وحي السماء، وشاخت دول الأرض، وانزاحت الحضارة الصحيحة عن أكثر البلدان، فعمها الظلام وسادتها الفوضى، وكان عهد الفترة، وكان زمن الجاهلية.

انتهت السيادة في الأرض إلى الدولتين الكبيرتين؛ فارس والروم، فتمتع ملوكهما بها، واقتسموا بينهم بلاد الله يتحكمون فيها ويتصرفون بخيراتها؛ فانقسم العالم إلى طائفتين: قُلٌّ ظالمون وكُثرٌ مظلومون، وغرقت الدنيا في لجٍّ من الباطل ما له من قرار.

كان يعرض لكسرى الفرس أو قيصر الروم خاطر من الطمع، أو طرف من القوة، فينهض ليقاتل الآخر... يتصارع الملكان، فلا يفوز أحدهما بطائل، وتجر المعركة ذيولها المسمومة على الآلاف من البشر.

اشتد الطغيان، وعمَّ الظلم، وامّحت الفضيلة، وضاع الحق، وأمست الشعوب فريسة الملوك؛ لا حرية ولا عدالة. فأين من ينصر الشعوب؟ أين من يؤيد الحق؟ أين من يحمي الفضيلة؟

ذلك هو صراخ الأطفال الذين أمسَوا بلا آباء لأن آباءهم قُتلوا في سبيل كسرى وقيصر، والشيوخ الذين باتوا بلا معين لأن أبناءهم ماتوا في سجون كسرى وقيصر، والأمهات اللائي لم يبقَ لهن نصير لأن أولادهن قد افترسهم كسرى وقيصر... يا للذئاب النائمة في أبهاء القصور!

لم يبقَ للشعب مال لأن الضرائب قد استنفدت أمواله، والشعب لا يستطيع أن يتكلم لأن سيف الظلم مصلت فوق رأسه. الشعب مظلوم، مرهق، فقير، جائع...

فمَن ينصر الشعوب؟ من ينشر الحرية والعدالة؟ من يفيض على العالم المتأجج برد الأمن والسلام؟ من يدلّه على الفجر

المومض وسط هذا الليل الأسود الداكن؟ من يسمع صراخ الأطفال والشيوخ والنساء؟ من يصغي إلى صوت الإنسانية المعذبة؟

لا أحد!

هنالك -يا أيها السادة- انطلقت البشارة على ألسنة الكهّان والرهبان: اطمئنوا وانتظروا؛ فإن أبواب السماء تفتّحَتْ، وإن نبياً عظيماً سيُبعَث فيطهر الأرض من الظالمين ويهدم صروح الجبروت وينصر الشعوب المظلومة، ويصغي لأنّات اليتامى ورنّات الأيامى وشكوى العاجزين.

فذهب الناس يبحثون ويسألون: متى يأتي النبي؟ من أين يخرج النبي؟

* * *

البادية خالية من كل شيء؛ ليس عند أهلها حضارة الروم ولا عظمة فارس، ولا فلسفة الهند ولا علم اليونان... وإنما هم أصحاب إبل وشاء ومضارب خيام، قَطر السماء أقصى نعمة يرونها والكفاف من العيش أبعد غاية يؤملونها، وكانوا منشقين على أنفسهم متباينين في قبائلهم ومساكنهم، يثيرون الحرب الزَّبون[1] من أجل ناقةٍ لبون، لا راية تجمعهم ولا حكومة تنظم أمورهم، حكمهم لسيوفهم وحقهم في رماحهم، لا يطمحون إلى تاج ولا يطمعون في سرير، إذا فارقوا صحراءهم بدَوا ضعافاً وكانوا خاضعين لمن يعرض لهم من الملوك والحاكمين.

---

(1) يقال: الحرب تزبِنُ الناسَ؛ أي تصدمهم، فهي زَبون (مجاهد).

تلك هي حال الجزيرة، ولكن أمل العالم البسّام قد لاح في الجزيرة. إن النبي المنتظر قد بُعث في الجزيرة.

* * *

يا للعجب العجاب!

لقد تحركت رمال البادية، لقد اخضرّتْ، لقد أزهرتْ. لقد دبّتْ الحياة في هذه الصخور الصلدة، لقد هبت على العالم من البادية المحرقة نسمة رخيّة عذبة... فما هذا؟ ماذا يجري هناك؟

يجري أكبر حادث في تاريخ البشر... تجري أعظم مَسْعاة إلى عظمة الإنسان وسعادته... تجري أروع قصة للتضحية والبطولة والسمو والكمال.

إن النبي ﷺ يمشي من مكة نحو أرض الحضارة؛ إلى المدينة، إلى دمشق، إلى بغداد، إلى قرطبة، إلى القرن العشرين، إلى الأَعصار التي لا تزال سراً مستتراً في ضمير الغيب... فاستبشري يا شعوب الأرض؛ لقد وقع أكبر حادث في تاريخ الأرض، لقد هاجر محمد.

* * *

لقد ظهرت معجزة الهجرة فانظروها...

إن الرجلين اللذين خرجا من مكة مستخفيَيْن هاربَيْن ضعيفَيْن قد رجعا إلى مكة ظافرَيْن فاتحَيْن، ومعهما عشرة آلاف مسلم.

إن الأربعين الذين كانوا مختبئين في دار الأرقم في مكة قد صاروا مئة ألف... مئة ألف من جنود محمد، من جنود الحق، من

جنود الله؛ مجتمعين في صعيد واحد، بثياب واحدة، ينادون بصوت واحد، ويتوجهون إلى رب واحد؛ دعاهم إلى التوحيد والسمو والحياة فأجابوا: «لبيك اللهم، لبيك».

وهنالك كان الاحتفال العظيم بتمام الرسالة، فوقف ﷺ يعلن للأجيال الآتية كلها حقوق الإنسان (قبل أن تعلنها الثورة الفرنسية بألف عام) ويقرر مبادئ العدالة والمساواة التي تجاهد أكثر الشعوب اليوم لتصل إليها:

«أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا». ثم يسأل: «ألا هل بلّغتُ»؟ فيجيبه مئة ألف مسلم، مئة ألف أسد، مئة ألف جيش، بأصوات ترتجُّ لها بطاح عرفات، وترددها أرجاء التاريخ: نعم، نعم... فيقول: «اللهم اشهد».

و يقرر أن الأخوّةَ أخوّةُ الدين، لا أخوّة الجنس ولا البلد، وأن كل مسلم أخٌ لكل مسلم... ثم يعلن المساواة التامة المطلقة، يعلن المبدأ الإنساني؛ إنسانية محمد الصادقة لا إنسانية أوربّة المكذوبه المزورة:

«أيها الناس! إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلّغتُ»؟ فيجيبه مئة ألف إنسان، مئة ألف قلب: نعم، نعم... فيقول: «اللهم اشهد».

وفي هذا الموقف المهول يعلن انتهاء الرسالة الكبرى التي

بعثه الله بها إلى الناس كافة، في العصور كلها، ويتلو قول الله تعالى: ﴿اليَوْمَ أكمَلْتُ لكُمْ دينَكُمْ وأتْمَمْتُ عليكُمْ نِعمَتي ورَضِيتُ لكُمُ الإسلامَ ديناً﴾

* * *

لقد تمت معجزة الهجرة...

فإذا المسلمون الذين كانوا ضِعافاً مستخفين قد احتلّوا عرش المجد و تملكوا زمام الدهر؛ فهدّوا صروح الظلم والاستبداد التي بناها كسرى وقيصر وشادوا على أنقاضها صروح العدل والحرية التي جاء بها محمد بن عبد الله ﷺ، فنعمت الشعوب بالحرية والعدل في ظلال الإسلام.

جاء محمد بالقرآن هدى من الله ونبراساً، فاهتدى العرب بهديه وساروا على سننه فأعزهم الله به ونصرهم، فكانوا ظاهرين. حملوه في صدورهم ووعوه في قلوبهم ثم خرجوا ليجاهدوا في سبيل الله كسرى وقيصر العظيمين الجليلين الظالمين العاتيين فأمكنهم الله منهما، فثلوا عرشيهما وهوت على أقدامهم تيجانهما، وخَلَفوهما في دارهما.

بالقرآن حاربوا، وبالإيمان جاهدوا، وبهما ظفروا وانتصروا. انتصروا فلم يبيدوا الحضارة ولم يبددوا العلم؛ لأن دينهم دين الحضارة وشريعتهم شريعة العلم، فأقبلوا على نشرهما وإذاعتهما، جاعلين الدنيا لهما مقياساً، والشريعة ميزاناً. فلم تكن إلا ردة الطرف حتى مكّن الله لهم في الأرض فغدوا ملوكها وسادتها.

كانت دولتهم تضرب بجِرَانها[1] ما بين مونبلييه في قلب فرنسا والتُبّت[2] في أرض الصين، ورايتهم تخفق على العالم كله فتخفق لها القلوب وترتجُّ لها الدنيا، وعاصمتهم منار الهدى وموئل العظمة ومثابة العلم ودار السلام.

كان قائدهم يجاهد في سبيل الله حتى يبلغ البحر ولا يرى أمامه من طريق، فيخوضه بفرسه ويقول: "اللهم لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً في سبيلك حتى أبلغ نهاية العالم أو أبلغ الجنة"! ثم إذا تم الظفر كان نصيبه من الغنائم كحظ أصغر جندي في الجيش. وكان مليكهم -على عظمته وجلاله- يقف بين يدي القاضي مع أدنى السوقة وأقل الناس، فلا يناديه القاضي إلا باسمه ولا يحكم عليه إلا بالحق، لأن الحق فوق الملك، والله فوق الجميع.

وكان الواعظ يدخل على أمير المؤمنين، فلا يزال يعظه ويخوفه من الله حتى تقطر دموعه من لحيته، ثم ينصرف عنه لا يرزؤه من ماله شيئاً، لأنه دخل لله ولا يبتغي المثوبة إلا من الله.

* * *

---

(1) الجِران -في الأصل- هو باطن العنق من البعير ونحوه، ولكن يُقال مجازاً: «ألقى فلانٌ على هذا الأمر جِرانه»؛ أي: وطّنَ نفسه عليه، و«ضرب الإسلام بجِرانه»؛ أي: ثبت واستقر. (مجاهد).

(2) قال جدي في غير هذا الموضع: ينطق الناس هذا الاسم «التيبت» ولفظها العربي الصحيح هو «التُبَّت»؛ بضم التاء وتشديد الباء المفتوحة (انظر الجزء الثاني من كتاب مقالات في كلمات: ١٩٦) (مجاهد).

يا أيها السادة:

إنه لولا الهجرة لم تكن المدينة، ولولا المدينة لم تكن دمشق، ولولا دمشق لم تكن بغداد ولا قرطبة، ولولا قرطبة وطليطلة لم تكن باريس ولا لندن ولا نيويورك؛ فلو أنصف هؤلاء المتمدنون لجاؤوا يحتفلون معنا بذكرى الهجرة:

هجرة من نصر الشعوب المظلومة... هجرة من نشر في الدنيا الحرية والعدالة والمساواة... هجرة من نقل العالم من الظلام إلى النور.

هذا هو سر الهجرة وهذا معناها. ليست الهجرة سفراً من مكة إلى المدينة، ولكنها انتقال إلى النور.

* * *

أيها السادة:

إن الإسلام لم يَبْلَ ولم يفسد، ولكنه لا يزال غضاً طرياً كيوم نزل به الوحي، وإن العالم ليتلفت اليوم يفتش عن الدليل الهادي، فأسمعوه صوت الإسلام، وأروه من أنفسكم مثال المسلمين الكاملين، حملة النور وهداة البشرية. تسامحوا قبل أن تخرجوا من هنا وتصافحوا، واعزموا على العمل ليكون هذا اليوم فاتحة عهد جديد في تاريخكم، كما كان يوم الهجرة فاتحة عهد جديد في تاريخ البشر.

* * *

المحتويات

المقدمة ٥

شخصية الرسول ٩

محمد رسول الله ٢٧

يا سيدي يا رسول الله ٣٣

من الصحراء إلى السماء ٣٩

هجرة محمد ٤٧

من صور الهجرة ٥٧

يوم الهجرة ٦٥

حقيقة الهجرة ٧٧

معنى الهجرة ٨٣

من معجزات الهجرة ٨٩

معجزة الهجرة ٩٥